منهمكاً بضعة أسابيع في عمل طاس وإبريق كردينال (فِرارا). إلا أن جو السجن أنهكني حتي أدركني الملل مما أعمل، وعلى سبيل التسرية صرت أعمل بعض التماثيل الشمعية الصغيرة فسرق الراهب شيئاً من هذا الشمع. وأخذ يعمل منه نماذج للمفاتيح بالطريقة التي شرحتها له في ساعة غفلة. وإصطنع له صديقاً وشريكاً من أحد موظفي المحافظ يدعى (لويجي) من أهالي (پادوا). إلا أنه كلف صانع مفاتيح بعملها فقام هذا بالإخبار عنهما. وكان من عادة المحافظ ان يختلف الى غرفتي لتفقدها. وفي إحدى المرات لاحظ الشمع الذي إشتغل به هو من نفس النوع الذي ضبطه عند الراهب. وهذا أدى به القول:

– لاشك ان بنڤنوتو المسكين قد لحقه ظلم كبير. إلا أن هذا لايبرر له الإساءة اليّ بعد عطفي عليه ومنحه إمتيازات خاصة له أكثر مما تسمح لي به وظيفتي.

وأضاف يقول: انه سيطبق أشد الإجراءات بحقيّ ولن يريني أي عطف مهما قلّ. وهكذا قفل عليّ غرفتي. وكان هذا من أصعب الأمور على نفسي ومما زاد في الطين بلّة ألسنة خدم المحافظ التي تناولتني بالقذف والتجريح بعد أن كانوا شديدي الحبّ لي. فوصفوني بناكر الجميل والغادر واللئيم والمعدوم الضمير. وإنبرى لي أحدهم بوقاحة فاقت وقاحات رفاقه ودفعتني براءتي الى إجابته بحدّة. وقلت له إني لم أغدر ولم أنكث بعهدي وإني مستعد للتضحية بنفسي لإثبات ذلك. وإن عاد هو أو غيره الى إلقاء الشتائم في وجهي، فإني سأحاسبهم عليها حساباً عسيراً. فلم يتحمل قولي هذا وأسرع الى غرفة المحافظ ثم عاد يحمل الشمع والنموذج المصنوع للمفاتيح منه. فما ان وقعت عيني عليه حتى أسرعت اقول له إن كلانا على حق. ومن الضروري ان يدعني اكلّم المحافظ وسأشرح له حقيقة الأمر. لأنه أهم وأخطر مما يتصورون. فأرسل المحافظ يطلبني في الحال وانهيت له بالحكاية من اولها الى آخرها. وكانت النتيجة ان ضيّق الخناق على الراهب فإعترف هذا بكلّ شيء ونمّ عن شريكه الموظف. وكاد الموظف ان يُشنق وحاول المحافظ التستر على القضية إلا انها كانت قد وصلت الى أسماع الپاپا على انه افلح في انقاذ موظفه واعاد اليَّ حريتي كالأول.

عندما فكرت في القسوة والإجراءات الصارمة التي اتّبعت معي في هذه القضية. بدأت أقلب في فكري المسألة. فوازنت الموضوع وقلت لنفسي:

– لو ثارت عاصفة ثانية كهذه. وزالت ثقة الرجل بي فلن أجد نفسي ملزماً بالعهد الذي قطعته له. سأدرس الموضوع قليلاً. وإني لمتأكد بان إجتهادي سيصيبني نجاحاً اكثر مما أصابه ذلك الراهب الوغد.

بعد هذا طلبت تزويدي من الخارج بأغطية جديدة خشنة. ولم أُعد الأغطية المتسخة ولما إستفسر عنها خدمي قلت لهم أسقطوها من حسابكم لأني أعطيتها لبعض الجنود الفقراء. ولو إنكشف الأمر لتعرض خدمي هؤلاء الى الحكم عليهم بالأشغال الشاقة في عنابر السفن. ولذلك كتم غلامي وخدمي ولاسيما (فيليچي) أمر الأغطية كتماناً تاماً. بعد هذا قمت بإفراغ فراشي من حشوة القش وإحراقه تدريجياً في الموقد الذي كانت غرفتي مزودة به لحسن الحظّ وللسماح لي بأيقاده. ثم بدأت أقطّع

الأغطية على شرائط بعرض سبع إنجات. ولما هيأت منها ماقدّرت انه يكفي للهبوط به من الإرتفاع العظيم للحصن الى خارج السور. قلت لخدمي إني أعطيت أغطيتي الخشنة وماعدت بحاجة الى أكثر وعليهم ان يزودوني الآن بأغطية ناعمة وإني من الآن فصاعداً سأعيد إليهم المتسخة منها وتنوسي الموضوع كله.

اشار الكردينالان (سانتيكواترو) و (كورنارو) على عمالي وخدمي بإقفال دكاني. وقالا لي بصراحة إن الپاپا ليس لديه أقلّ نية في إخلاء سبيلي. وإن الإهتمام العظيم الذي أبداه الملك فرانسوا بي قد أضرّ بي أكثر مما نفعني. ففي آخر رسالة شفوية عن الملك أبلغها (مونسيور دي مورلوك -di Mor luc). قال ان على الپاپا ان يحيل قضيتي الى القضاة المدنيين العاديين فإن إرتكبت جرماً فبإمكانه معاقبتي وإن كنت بريئاً ولم أقترف ذنباً فالعدالة تقتضي بإطلاق سراحي. هذا القول أغاظ الپاپا بحيث أبعد عن رأسه أيّ فكرة تساوره حول إخلاء سبيلي. ولكن الذمة تقضي عليّ أن أعترف بأن المحافظ لم يألُ جهداً في مساعدتي.

ولما رأى خصومي أن دكاني قد أُقفلت أخذوا يتجرأون على عمالي وخدمي ولم يكن يمرّ يوم واحد دون أن يعتدوا عليهم بالسبّ والسخر منهم وبأصدقائي الذين يأتون لزيارتي في السجن. وفي واحدة من هذه المناسبات طلب مني إسكانيو الذي إعتاد زيارتي مرتين في اليوم- أن أسمح له بخياطة سترة صغيرة من معطفي الذي لم ألبسه إلا مرّة واحدة في مسيرة يوم العيد وهو من الساتان الأزرق. فأجبته ليس هذا بالوقت والمكان المناسب لإرتداء مثل هذه الثياب. فتألم الفتى لرفضي إعطاءه هذا الشيء التافه الحقير، وصرّح إنه يريد العودة الى مسقط رأسه (تاليباكوزا). فثار غضبي وقلت سأكون سعيداً لو تخلصت منه. فحلف انه لن يعود الى زيارتي بعد الآن. وكنا أثناء هذه المشادة نتمشى حول سور القلعة. وإتفق ان المحافظ كان يتجول هناك وعندما إقتربنا منه قال لي (إسكانيو):

- إني سأتركك إذن. نهائياً.

فأجبت:

- أتمنى أن تكون ثابتاً على قولك وأن يكون هذا نهائياً وسأخبر الحرس أن لا يسمحو لك بالمجيء هنا بعد الآن.

ثم إلتفتُّ الى المحافظ ورجوت منه بإلحاف أن يأمر الحرس بعدم إفساح السبيل له الى داخل القلعة مرة أخرى وقلت:

- إن متاعبي تكفيني وهذا الغلام السخيف الصغير يأتيني ليزيد فيها. لذلك أرجوك ياسيديّ أن تمنعه من زيارتي.

وقد تألم المحافظ جداً لهذا لأنه كان على علم ودراية بمواهب (اسكانيو) العظيمة، والى جانب هذا فقد كان وسيم الوجه بحيث بدا من المستحيل على من يتطلع اليه أن لا يهفو قلبه له. إنصرف الفتى والدموع تجول في عينيه. ولايفوتني ان اذكر انه كان يحمل سيفاً قصيراً كان أحياناً يخفيه في طيات ثيابه.

بعد تركه القلعة محزوناً ووجهه مخضّل بالدموع. حكمت الصدف بأن يلتقي بواحد من ألدّ خصومي وهو (جيرونيمو)[٢٣١] الپيروجي الذي ذكرته سابقاً مع شخص آخر يدعى (مكيلي Michele) وكلاهما صائغ. وكان (مكيلي) هذا صديقاً للپيروجي وعدواً لإسكانيو فقال له:

– مالذي يبكي اسكانيو؟ لعل أباه توفي؟ أنت تدري ان أباه في القلعة.

فصاح اسكانيو:

– انه حيّ! أما أنت فأبشر ان منيتك حانت الآن...

وشهر سيفه وضربه ضربتين موجهتين الى رأسه. بأولاهما جندله على الأرض وبالثانية قطع له ثلاث اصابع من يده اليمني وإن كان الهدف رأسه. وتركه ملقى على الأرض كأنه ميت. وأُعلم الپاپا بالحادث فوراً، فقال وهو يتلظى غيظاً:

– مادام الملك يريد ان يُحاكم فإذهبوا بلّغوه بأن يهيء دفاعه خلال ثلاثة أيام.

وُضعت أوامر الپاپا موضع التنفيذ في الحال. لكن المحافظ الشهم أسرع من فوره الى الحصن. ودافع عني دفاعاً بارعاً فجنبني سخط الپاپا وانقذ حياتي. وهرب (اسكانيو) الى موطنه (تالياكوزا)، وكتب لي من هناك يستغفرني ألف مرّة. وقال انه أخطأ بحقي في زيادة متاعبي. وأقسم انه في حالة ما تمت مشيئة الله وخرجت من السجن فإنه لن يتركني. فكتبت له اقول بأني سأرسل في طلبه حتماً عندما أخرج من السجن بإدارة الله. وعليه خلال ذلك ان يواصل تعلم الصنعة.

في فترة معينة من كل سنة تنتاب المحافظ إختلاطات عقلية تسلمه الى نوبة من الجنون. وعندما تبدأ فيه يروح يتكلم ويتكلم بل ويهذي دون توقف. والوهم فيه يختلف بين سنة و أخرى. فمرّة يتخيل نفسه جرّة زيت. وفي سنة ثانية انه إستحال الى ضفدع ويقلده بالقفز والنطّ مثله. ومرّة ثالثة يتراءى له انه ميت ويجب ان يُهال عليه التراب ويدفن. في كل سنة يستولي عليه وهم من هذه الأوهام. وفي هذه المرة الأخيرة بدأ يتصور نفسه خفاشاً وكان حين يتمشى يخرج من فمه صأصأة عالية مثل صوت الخفاش ويحرك يديه وجسمه كأنما يريد أن يطير. فإذا شعر الأطباء ومرؤوسوه بإقتراب النوبة حاولوا إلهاءه وصرفه عنها بمختلف الوسائل ولما وجدوا انه يستأنس بيّ ويرتاح الى أحاديثي صاروا يستدعونني ويرجون مني ان ابقى ملازماً له. فأظلُّ مع هذا البائس أحياناً اربع او خمس ساعات دون ان اقف لحظة عن الكلام او اقطع مسير الحديث. وكنت اتناول طعامي على مائدته وانا أجلس قبالته. فلا يتوقف عن الكلام ولايدعني أسكت. وكنت آكل خلال هذه المحادثات بشهية عظيمة. اما البائس فلا يأكل ولاينام. وبنتيجة هذا أصابني إنهاك وتعب شديدين حتى لم يبق عندي طاقة. احياناً كنت الاحظ نظرة مخيفة في عينيه. واحدة تنظر الى هذه الجهة، والأخرى الى الجهة الأخرى.

سألني يوماً هل وجدت في نفسي هوى الى الطيران؟ فأجبت اني حاولت وفعلت كل ماهو صعب اجراؤه على البشر. فأما بخصوص الطيران فقد قلت له بأن الله قد انعم عليَّ بتكوين متين لدن ملائم للعدو والقفز مسافات كبيرة. وبإمكاني كذلك إستخدام براعة يديّ، ولذلك فإني بالتأكيد قادر على

(٢٣١) هو عين الصائغ الذي وشى به وأخذه معه الى فرنسا.

الطيران.

فراح يسألني عن كيفية ذلك وماهي وسائلي. فقلت لو تأملنا معشر الطير وما يعينه على الطيران، بفكرة تقليدها بوسائل فنية، فلست أجد في هذا المضمار خيراً من تقليد الخفاش. ما ان سمع المسكين إسم الخفاش المرتبط بأوهامه في تلك السِنة حتى أخذ يصرخ:

- إنه يقول قولاً صحيحاً! هذا هو الصحيح، هذا هو بالضبط!

ثم إلتفت الي وقال:

- بنڤنوتو! لو سنحت لك الفرصة. أتجد في نفسك الشجاعة على الطيران؟

فأجبت لو انه منحني حريتي فيما بعد فإني لقادر على الطيران حتى (پراتي) بجناحين من الكتان المشمع.

فأجاب:

- وان نفسي لتهفو الى أن أحذو حذوك. ولكن بما أن الپاپا قد أصدر اليّ أوامر مشددة بأن أحرسك كما لو كنت عينيه وبما انيّ أعلم إنك شيطان واسع الحيلة في تخطيط فرارك. فإني سأحبسك خلف مائة قفل لأحول بينك وبين الإفلات مني.

فبدأت أتوسل به مذكِّراً أياه بأن الهروب لايصعب عليّ ولكنيّ أعطيته كلمة شرف بأني لن أخون ثقته. وإستصرخته بمحبة الله. وبالنظر الى كلّ ماحباني من عطف بألاّ يزيد من بؤسي بؤساً وأن لايضيف الى ما أقاسي إجراءً تعسفياً كهذا. وفيما انا أتكلم راح يصدر أوامره بأن أوضع في القيد وأوخذ الى زنزانة محكمة الأبواب والمغاليق. ولما أدركت عقم محاولاتي معه و ان الأمر مبتوت فيه قلت بمحضر من كلّ مرؤوسيه بأن لا يدّخر أي جهد في إحكام السجن عليّ وان يتوخى كل الدقة في تشديد الحراسة لأني سأبذل كلّ مافي طوقي لأهرب. ثم أخذوني ووضعوني في زنزانة إنفرادية وإتخذوا كل الإحتياطات الدقيقة بشأني.

بعد هذا بدأت أفكر في خطة لتحقيق فراري. ما أن أقفلوا الباب عليّ حتى بدأت أقوم بفحص الزنزانة. وبعد أن إستقرّ فكري على طريقة للخروج بدأت أفكر في كيفية الهبوط من سور الحصن المرتفع وهو البرج الضخم كما يدعى، فقمت بخياطة جميع الأغطية الجديدة التي كنت قد عملتها شرائط، على هيئة حبل ثم رحت أقدّر الطول الذي يلزمني منها للبلوغ الى الأرض. بعد هذا أخذت كلابتين من أحد حراس القلعة وهو مواطن (ساڤويي). هذا الرجل كان من واجبه الإشراف على المراحيض والأنابيب وكان يزاول النحت بالخشب على سبيل الهواية وعنده عدد كبير من هذه الكلاّبات وبينها كلاّبة كبيرة محكمة. وجدت أنها تفي بغرضي فإختلستها منه وأخفيتها في قش الفراش. ولما حان وقت إستخدامها أخرجتها وأخذت أعالج قلع المسامير التي تشد مفاصل الباب بخشبة. وكان الباب مزدوجاً ولهذا لم تكن رؤوس المسامير المدببة تظهر من الجهة الثانية. وكان قلع كل مسمار منها يقتضي مني جهداً خارقاً. إلا أني حققت نجاحي. بعد أن نزعت المسمار الأول جوبهت بمشكلة الإحتيال على إخفاء الفراغ المتخلف عن عين الفاحص. ثم وفقت الى ذلك بمزج قليل من برادة الحديد الصديء

مع الشمع وعمل تقليد للمسامير الطويلة التي كنت أقلعها من هذا المزيج وقد أتقنت لونها تماماً. وهكذا رحت أقلّد كل مسمار أنزعه وأضع التقليد في محل المسمار الذي أخلعه، على إني تركت المفاصل مسمرةً بألواح الباب بمسامير عتيقة أعدت دقها في المفاصل المشدودة الي الباب بشكل متخلخل. وقد أورثتني هذه العملية همّاً كبيراً وقلقاً لايمكن وصفه. لأن المحافظ كان يحلم كل ليلة بأني نفذت ما إعتزمته وفررت. فيرسل رجاله بين الفينة والفينة لتفقد زنزانتي. ومن هؤلاء سجّان إسمه وأخلاقه ينطبقان على الشرطي. ويدعى (بوزّا Bozza) ولم يكن يأتي إلا ومعه آخر يدعى (جيوڤاني) ويلّقب بـ(پيدينيوني Pedignone) وكان هذا جندياً، أما (بوزّا) فهو خادم.

لم يدخل جيوڤاني زنزانتي مرةً واحدة دون إهانتي وكان من سكنة منطقة (پراتو) يشتغل عند عقاقيريّ. وكان كل يوم يقوم بفحص المفاصل في الباب وكلّ أنحاء الغرفة فحصاً دقيقاً جداً. وكان من عادتي القول تعقيباً:

- أنعموا النظر وليكن فحصكم دقيقاً لأني صممت على الفرار مهما كلّف الأمر.

وقد جعلت كلماتي هذه منهم أعداء ألدّاء لذلك بالغت في إخفاء أدواتي ووسائلي في الفراش- وأعني بها الكلابتين وخنجراً كبيراً ممتازاً وما شاكل ذلك، مخفية بكلّ عناية مع الحبل داخل الفراش. وكنت أقوم فجر كل يوم بتنظيف غرفتي بنفسي وكنسها وتنظيمها بشكل مريح فأنا بطبعي أحب النظافة والنظام. بعد أن أفرغ من هذا أعمد الى تسوية فراشي وأرتبه وأنثر فوقه أزهاراً، كان يأتي بها رجل (ساڤويي) وهو المكلف بالإشراف على الأنابيب والمراحيض. وله ولع شديد بالحفر على الخشب ومنه إختلست الكلاّبتين التي إستعتملتها لقلع المسامير من المفاصل.

وأعود الى الفراش فأقول عندما يدخل (بوزّا) و (پيدينيوني) الغرفة أبتدرهما محذراً أياهما من الإقتراب من فراشي لئلا يلوثاه أو يوقعا الإضطراب به. في بعض الأحيان يعمدان الى لمسه لمسةً خفيفة نكاية بي وإغاظة فأصيح:

- قبّحكما الله من أقذر الجبناء. سأختطف سيف أحدكما وأعمل فيكما طعناً وأثخنكما جراحاً لن تنسياها بوقت وجيز. أتطنان انكما جديران بلمس فراش رجل من وزني. لن أبالي بالمخاطرة بحياتي بعد أن أنزع حياتكما أولاً. ألا أغربا عن وجهي وأتركاني لآلامي وبؤسي ولاتضيفا الى ما أحمله منها قدراً آخر وإلا أريتكما ما يمكن أن يقدم عليه اليائس.

وينقلان أقوالي هذه للمحافظ فيصدر إليهما أمراً قاطعاً بألا يقربا فراشي وأن لا يدخلا عليّ بسيفيهما. لكن يجب ان يراقباني مراقبة دقيقة. بعد أن تأكدت ان الفراش سيبقى في مأمن أيقنت بأني إنتهيت من كل شيء. فالخطة تتوقف على ذلك.

في ليلة يوم عيد، كان المحافظ في أقصى حالات هوسه. فلم يكن يخرج كلام من فمه غير ترديده: "إنه خفاش، وإذا سمعوا ان بنڤنوتو قد طار من القلعة فليدعوه يلحق بي طائراً لأنه أفضل مني بالطيران الليلي وبإمكانه أن يدركني ويمسكني. ويردد كذلك قوله:

- بنڤنوتو خفاش مزيف وأنا الخفاش الحقيقي. وبما ان حراسته قد عُهد بها إليّ فدعو أمره لي

وسأقبض عليه.

ظل يعاني هذ الحالة عدةً من الليالي فأرهق مرؤوسيه وأنهكهم وكانت انباؤه تصلني بمختلف الوسائل. ولاسيما الرجل الساقويي الذي كان صديقاً حميماً. في ليلة العيد هذه قررت تنفيذ خطتي بالهرب مهما كلّف الأمر. فتوجهت أولاً الى الله وبكلّ حرارة دعوته الى نصرتي وردّ الأذى عني في هذه العملية الخطرة. بعد هذا أخرجت أدواتي وبقيت أتأهب طول الليل. وقبل إنبلاج الصبح بساعتين قلعت العوارض الحديدية بأعظم مشقة إلا أن الباب والمزلاج أعجزاني وأعياني أمرهما، فاضطررت الى أن أنشر الخشب وبالأخير نجحت. حملت الحبال التي كنت قد لففتها حول قطعتين من الخشب مثل كبّة الخيوط وتوجهت نحو مراحيض البرج. ولمحت هناك آجرّتين في السقف فعلوتهما بكل سهولة. كنت أرتدي صداراً وسروالاً ضيقاً من قماش أبيض وحذاءً طويلاً من الجلد. وضعت خنجري في فردة منه. ثم عقلت رأس أحد الحبلين بشكل أنشوطة حول قطعة من الاجرّ القديم بارزة من الجدار بمقدار أربع أصابع. بعد هذا رفعت انظاري الى السماء متوجهاً الى الله بهذا الدعاء.

– سيدي وإلهي هبني العون والقوة لأنك تعلم انيّ على حق وأني أريد لنفسي النجاة.

قلت هذا وتركت جسمي ينزلق الى الأسفل بيسر وهوادة معتمداً على قوة ساعدي، الى أن مسّت قدماي الأرض. لم يكن ثمّ ضوء قمر إلا أن السماء كانت صافية الأديم تماماً. ما إن إستقر جسمي على الأرض حتى رفعت ناظري الى أعلى أتأمل في الإرتفاع الكبير الذي هبطت منه بهذه الجرأة. وخُيّل لي بأني أصبحت حراً فسرت بقلب خال من الهم إلا أني كنت واهماً. لان المحافظ كان قد أقام في هذه الجهة جدارين عاليين يحتويان الإسطبل وبيت الدجاج. وكان الموضع مقفلاً بمزلاجين ثقيلين من الخارج. لما وجدت سبيل النجاة مسدوداً في وجهي، غلا دمي في عروقي ورحت أسير جيئةً وذهاباً أتلمس لنفسي مخرجاً وأفكر في وسيلة للخروج من المأزق، عثرت بعارضة خشبية مغطاة بالتبن فسحبتها بجهد كبير ثم أسندتها الى الجدار وتسلقتها مستخدماً أقصى ما لديّ من طاقة حتى علوت الجدار. إلا أن الجدار كان حادّ الحافة ولذلك تعذر عليّ أن أستجمع القوة الكافية لجرّ الخشبة الى الأعلى ورائي. لذلك قررت إستخدام كبّة الحبال ثانية. وكنت قد تركت الأولى مشدودة بأعلى البرج. ربطت قطعة من الحبل حول الدعامة وإنزلقت بها الى الجهة الثانية من الجدار مستخدماً كل ما تبقى عندي من طاقة. شعرت بقواي تخور وأصيبت راحتا يديّ بتسلخات وأخذ الدم ينزف منهما. جلست لأصيب بعض الراحة وغسلت يدي ببولي. بعد أن إلتقطت أنفاسي وإستجمعت قواي توجهت بسرعة الى الجدار الثاني الذي يواجه (پراتي) ثم رتّبت حزمة الحبال معتزماً شدّ إحدى نهايتيها بالسور كي أستطيع الهبوط من هذا الإرتفاع الذي يقلّ عن الإرتفاع الأول وبعين الطريقة. ما إن أكملت إستعدادي بالحبال حتى لمحت أحد الحراس خلفي يقوم بواجب الخفارة. وبإدراكي ان خطتي مهددة وحياتي معرّضة للخطر، قررت مواجهته. ولما تبين عزمي الثابت في عينيّ وأنا أتقدم منه والخنجر مشرع في يدي، نكص على عقبيه مسرعاً. لمحت حارساً آخر وبدا وكأنه لايريد ان يراني. فعدت الى لفّة حبالي وشددت طرفها في مسنن السور ونزلت هابطاً.

لا أدري ماحصل بالضبط لي في آخر مرحلة من الهبوط. ربما خيّل لي أني قريب جداً من الأرض ولذلك أفلتّ الحبل لأصل إليها بقفزة. أو لأن يدي قد كلّتا بحيث كان الجهد أكثر مما أتحمل. فقد سقطت وبسقطتي إصطدم قذال رأسي بالأرض الصلبة ففقدت الوعي. وبقيت كذلك منطرحاً أكثر من ساعة ونصف الساعة على ماقدّرت. وبعد تباشير الصبح عمل هواء الفجر الرفيق النقيّ على إفاقتي قبل بزوغ الشمس. إلاّ اني لم أستجمع قواي العقلية وشعرت وكأن رأسي منفصل عن بقية جسمي. وإنني في شاطيء الأعراف (المطهر) ثم بدأت أستعيد رشدي شيئاً فشيئاً. ولاحظت أني خارج القلعة فتذكرت فجأة كل ماحصل وكل ما أقدمت عليه. وأحسست بصدمة رأسي قبل إدراكي إن ساقي مكسورة. مددت يدي الى قذالي ثم سحبتهما وهما ملطختان بدمائي. ثم فحصت نفسي بدقة، وخلصت الى أني لم أصب بأذى كبير. إلا أنيّ لّما حاولت النهوض وجدت الكسر في ساقي اليمنى فوق الكعب بثلاثة إنجات، أو نحوها. ولم يفزعني هذا وأخرجت خنجري وجرّدته من غمده الذي كان ينتهي بكرةً صلبةٍ كبيرة وكانت هي سبب كسر عظمة ساقي لأن سقطتي كانت في الجهة التي أخفيته فضغطت الكرة على العظم وفطرته.

ألقيت بالغمد جانباً وقطعت بالخنجر جزءً من الحبل وربطت به سائقي ربطاً محكماً. ثم أخذت أزحف على أربع والخنجر في يدي قاصداً مدخل المدينة وقد وجدته موصداً. على أني لاحظت صخرة كبيرة تحت الباب الذي لم يكن قد حُشر وثُبّت بشكل محكم. فحاولت زحزحتها فإستجابت ليديّ وتحركت ثم أخرجتها من مكانها بسهولة وزحفت الى الداخل من خلال الحفرة التي أحدثتها.

كانت المسافة بين موضع سقوطي من فوق السور وبين المدخل الذي نفذت منه الى روما تربو على خمسمائة ياردة.

وفي داخل المدينة صرت هدفاً لهجوم عدد من الكلاب الضخمة التي أخذت تصول عليّ بشراسة وتعضّني. وتكرر ذلك عدة مرات فضويقت كثيراً وإضطررت الى قتل أحدها بطعنة من خنجري فأطلق عواءً أليماً. فلحقت به البقية مبتعدةً بحكم غريزتها، وعدت احبوا مجاهداً للوصول الى بيعة (ترانسپورتينا).[٢٣٢] ثم بلغت رأس الشارع الأخير الذي يمتد الى (سانت انجلو) إخترت الطريق الذي يؤدي الي كاتدرائية بطرس الرسول، لأن نور النهار أخذ ينتشر حولي ولإدراكي خطورة موقفي، ثم لقيت سقّاء يسوق حماراً محملاً بفناطيس الماء فناديته ورجوته ان يحملني ويتركني عند درج الكاتدرائية وقلت له:

– اني سيء الحظ. حاولت الهبوط من النافذة بعد مغامرة غرامية. وعند سقوطي إنكسرت ساقي. إن البيت الذي تركته هو لأسرة بارزة وإن حياتي في خطر عظيم وقد أُقطّع إرباً. لذا أرجو منك أن تحملني بسرعة وسأعطيك كراوناً ذهبياً.

وهززت صرّة مالي التي كانت مملوءة فهرع اليّ ورفعني وكان مسروراً جداً بحملي على ظهره حتى الدرجات العليا للبيعة. وأشرت إليه بأن يتركني حيث أنا ويذهب الى حماره وواصلت الزحف على

(٢٣٢) كنيسة صغيرة بين سانت انجلو وكاتدرائية بطرس. وهي مكرسة لقديسة بهذا الإسم.

أربع متجهاً الى منزل الدوقة[٢٣٣] وهي زوج الدوق (أوتاڤيا) وبنت الإمبراطور غير الشرعية. وكانت من قبل تحت الدوق إليساندرو دوق فلورنسا.

ذهبت إليها ، لأني كنت واثقاً بأني سأجد حولها عدداً كبيراً من أصدقائي الذين رافقوها من فلورنسا. كذلك كنت أتمتع بمكانة وحظوة عند هذه الأميرة العظيمة بسبب إشادة محافظ القلعة بي. فقد أخبر الپاپا على سبيل الشفاعة بي أني وفرت على روما مايوازي ألف كراون من الضرر عند دخول الدوقة مدينة روما بمنعي من وقوعه. فما حصل هو هذا: إن المطر يوم قدوم الدوقة كان ينذر بعاصفة هائلة توقع بالمدينة كثيراً من الضرر وإستولى القلق على المحافظ ولم يدر ما يصنع فرفعت معنوياته بتوجيه عدة قطع من المدافع الثقيلة نحو الرقعة التي تتجمع فيها أكثف الغيوم ومن حيث ينصب المطر بغزارة فما إن أطلقت المدافع حتى توقف نزول المطر. وبعد الرشقة الرابعة إحتبس المطر تماماً وإنقشعت الغيوم وظهر قرص الشمس وبهذا كنت السبب (على حد قوله) في مواصلة الإحتفالات العامة بالمناسبة ونجاح المهرجان. ولما سمعت الدوقة بالحكاية عقبت قائلة:

- إن (بنڤنوتو) كان حد الفنانين الذين يقدّرهم زوجي السابق أليساندرو وينزلهم في نفسه منزلة رفيعة. وأنا أيضاً لن أنسى أمثاله من الرجال إن وجدت مناسبة لمساعدتهم.

كما أنها ذكرتني أيضاً عند زوجها الحالي الدوق أوتاڤيو. ولهذا السبب قصدت سموّها مباشرة. وكانت تسكن قصراً جميلاً جداً في (پورگو ڤيكيو Porgo Vecchio) وقد قدّرت أني سأكون في أمان تام عندها. لأن الپاپا نفسه سيعجز عن مدّ يده إليّ. لكن لمّا كان ماقمت به من عمل يفوق طاقة البشر فقد شاءت إرادة الله لخيري ان يكبح جماح غروري بإنزال عقاب بي يفوق سالفه. وما حصل هو أنه فيما كنت أزحف على أربع فوق الدرج لمحني أحد خدم كردينال (كورنارو) وعرفني حالاً. وكان الكردينال يشغل القصر في تلك الفترة، فأسرع إليه وأيقظه من نومه قائلاً:

- سيدي الكليّ الإحترام. إن صديقك (بنڤنوتو) هنا. لقد فرّ من القلعة وهو يزحف ملطخاً بالدماء. وبحسب الظاهر إن إحدى ساقيه مكسورة. ونحن لاندري الى أين يريد التوجه.

فبادره الكردينال حالاً:

- اسرع. احمله اليّ.

عندما جيء بي اليه طمأنني على نفسي. ثم إستقدم حالاً أمهر الأطباء في روما فتوفروا الى معالجتي كان أحدهم من(پيروجيا) وإسمه (جاكومو) وهو جراحيّ من الطبقة الأولى. فجبّر الساق بدقة وإتقان ثم شدّها. وفصدني بنفسه وكانت عروقي متورمة بشكل غير إعتيادي وأراد أن يفتح فتحةً واسعة نوعاً ما فتدفق الدم بقوة فأصاب وجهه وتلطخ بالدم الغزير حتى إضطر الى التوقف عن علاجي وإعتبر ذلك نذير شؤم ولم يستمر إلاّ بكثير من التردد. والحق يقال انه اراد تركي اكثر من مرة لعلمه ان العقاب يهدد من يعالجني أو من يواصل معالجتي على الأقل. ووضعني الكردينال في غرفة سريّة

(٢٣٣) أميرة النسما: تزوجها الدوق أليساندرو لتقوية مركزه. وبعد إغتياله تزوجت الدوق أوتاڤيودي مديتشي إبن أخ الپاپا پولص الثالث وكان دخولها روما في الثالث من تشرين الثاني ١٥٣٨.

وإنطلق الى البلاط حالاً وهو ينوي إلتماس الپاپا العفو عني وإطلاق سراحي.

كانت روما في تلك الأثناء تغلي كالمرجل، والناس في هرج ومرج وإنفعال فقد لوحظت الحبال الكتانية متدلية من مسننات البرج الكبير في القلعة. وتوافدت جموع غفيرة لمشاهدة هذا المنظر العجيب. أما المحافظ فقد إنتابته نوبة جنون شديدة. وأصرّ متحدياً موظفيه على الطيران من فوق السور الى الأسفل بوصفه الوسيلة الوحيدة للقبض عليّ كما تخيّل. وفي اثناء ذلك سمع (روپرتو چوچيّ) والد (السيد باندولفو) بالنبأ. فذهب الى القلعة ليتحقق الأمر بنفسه ثم إنقلب الى قصر الكردينال كورنارو، فقصّ عليه هذا الحكاية برمتها. فأعلمه الكردينال بأني موجود الآن في إحدى غرف القصر والأطباء يقومون بمعالجتي. هذان الرجلان الغيوران قصدا الپاپا سوية وركعا أمامه فلم يدعهما ينطقان بحرف إذ إبتدرهما قائلاً:

- إني أعرف ماتريدان منيّ.

فقال السيد (روبرتو پوچيّ):

- أيها الأب الأقدس إننا نطلب حرية هذا الرجل السيء الحظ، بوصفه عملاً من أعمال البرّ والعطف. انه يستحق بعض العطف بسب مواهبه، فضلاً عن انه اظهر من الشجاعة والإقدام والذكاء ماينذر وجوده لدى البشر. إننا لاندري نوع الجريمة التي حملت قداستك على إلقائه في السجن هذه المدة الطويلة. فإن كانت كبيرة فقداستك ذات الجلالة والحكمة تتسع لفرض ارادتك على كل الأشياء، أما إذا كانت مما يمكن العفو عنه فإننا نلتمس ذلك إكراماً لنا.

شعر الپاپا بشيء من الخجل. وقال اني اعتقلت "بناءً على رجاء تقدم به أحد رجال بلاطه. فقد تحدى كل الحدود في اعتداءاته وحدة طباعه. ومع هذا ولمعرفتنا بمواهبه العظيمة وكذلك لأننا نريد إبقاءه عندنا. فقد رتبنا بأن نحبوه بعطفنا وكرمنا بحيث لاندع له سبباً للعودة الى فرنسا. اني لشديد الألم بسبب ما أصابه من أذى شديد، قولا له إن الپابا يرجو له الشفاء فإذا تمّ له ذلك فسنعوضه خيراً عما عاناه.

أسرع الرجلان الكريمان اليّ بهذه البشرى السارة من الپاپا.

في أثناء ذلك بدء وجهاء روما وأشرافها يتقاطرون لزيارتي من كلّ عمر وطبقة. وأصرّ محافظ القلعة وهو في أحد نوبات جنونه الحادة بأن يحمل الى الپاپا وهناك أخذ يئن متوجعاً ويقول ان لم يعدني قداستُه الى السجن فإنه يرتكب بحقه خطأً كبيراً واردف قائلاً:

- لقد هرب منيّ وحنث بكلمة الشرف التي قطعها لي! أنظر، أنه طار عنيّ في حين وعدني بأنه لن يحاول ذلك.

فأطلق الپاپا ضحكةً عالية وقال له:

- إذهب، إذهب الآن، وسآتيك به مهما كلّف الأمر.

فقال المحافظ:

- إبعث إليه بحاكم روما ليسأله عمّن سهّل له الفرار. فإن كان واحداً من رجالي فسأتولى شنقه في

الموضع الذي هبط منه (بنڤنوتو).

بعد إنصراف المحافظ إستدعى البابا الحاكم وقال له باسماً:

- انه لشجاع حقاً. وماقام به يثير الإعجاب حتى إني أقدمت على نفس العملية من الموضع نفسه عندما كنت شاباً.

كان البابا يقول الحقيقة. فقد جيء به الى القلعة معتقلاً لقيامه بتزوير رسالة پاپاوية عندما كان يتولى منصب الأستاذ المعيد في معهد (پاركو ماجيوري)[٢٣٤]. وقد أبقاه البابا ألكساندر معتقلاً مدة. ولما كانت جريمته مخلّة بالشرف فقد قرر قطع رأسه. إلاّ أنه أجّل إنفاذ ذلك بعد عيد القربان المقدس. وعلم (فارنيزي) بما بُيّت له. فإتصل بـ(پييترو كيافيلوزّي Pietro Chiavelluzzi) الذي هيأ له بعض الخيل ورشا حراساً من القلعة. وفي يوم عيد القربان بالذات أثناء ماكان البابا يتصدر الموكب الديني والناس في شاغل، وُضع (فارنيزي) في سلة كبيرة وأُدلي من الحصن. ولم يكن السور الخارجي قد أُقيم بعد ولذلك لم يعان في هروبه ما عانيت من المشقة. فقد كان البرج قائماً وحده. كذلك كان إعتقاله جزاءً وفاقاً. أما إعتقالي فهو ظلم صارخ. وكان يريد من ذكر هذا التباهي أمام الحاكم بشجاعته وإقدامه على المغامرات أيام كان شاباً. غير مدرك انه يكشف بهذا عن طبيعته الإجرامية.

قال للحاكم:

- إذهب إليه واحمله على الإعتراف بإسم من عاونه وسهّل عليه سبل الفرار ولايخشى على شريكه العاقبة مهما كانت صفة ذلك الشريك فيكفيه أننا عفونا عنه ويمكنك أن تؤكد له ذلك.

جاءني الحاكم وقد رُقّيَ قبل يومين الى رتبة الأسقفية ونُصّب أسقفاً لـ(ييزي Jesi)- وقال لي:

- عزيزي (بنڤنوتو) إن كانت وظيفتي تملأ الناس رعباً فإني جئت لأطمئنك. لقد جئت منفذاً أوامر البابا الصريحة الذي أخبرني بأنه هو الآخر كان قد فرّ من القلعة إلا أنه لم يحقق ذلك إلا بمساعدة العديد من الأصدقاء والشركاء الذين سهّلوا له الأمور ولولا ذلك مانجح في مسعاه. إني أقسم لك بالأسرار المقدسة التي أمنحها بحكم وظيفتي الروحية وقد نصبت أسقفاً قبل يومين. أن البابا قد حررك وعفا عنك وهو شديد الألم للحادث الذي أصابك. فإعمل على أن تتعافى بسرعة وانظر الى الأمور بمنظار جميل وتوقع كل الخير. أما هذا السجن الذي ذقت مرارته ظلماً والحق يقال، فسيعود عليك بالخير العميم وستطأ بقدمك على الفقر والخصاصة. ولاتعود تفكر بالسفر الى فرنسا وتنهك كيانك بالحلّ والترحال والتنقل. لذا أرجو ان تقصّ عليّ دون تردد مل ما وقع بالضبط ومن ساعدك. وعندها فلتكن مرتاح البال ولتحقق شفاءً عاجلاً.

فسردت عليه الوقائع من الألف الى الياء ولم أترك صغيرة أو كبيرة، حتى لم أُغفل قصة السقّاء الذي حملني على ظهره. بعد أن سمع الحاكم كل هذا عقّب بقوله:

- إن هذه الجلائل من الأعمال لهي في الواقع أكبر من أن يأتيها إنسان بمفرده. الحق يقال انك الوحيد

(٢٣٤) هذا المعهد (Collegi degli Abreviatori di Parco Maggiore a Minori) أسسه البابا پولص الثاني (١٤١٧-١٤٧١). إن أليساندرو فارنيزي (پولص الثالث) هرب من السجن فعلاً إلا أن ذلك حصل في زمن البابا انوسنت الثامن (١٤٣٢-١٤٩٢) لا أليكساندر السادس پورجيا (١٤٣١-١٥٠٣).

بين الرجال القادر عليها.

ثم انه امسك بيدي وإستطرد يقول:

- لاحاجة بك الى القلق وعليك ان تطيب بالاً. لأني وبهذه اليد التي أمسكها أوكد لك بأنك أصبحت حراً وإن عشت فستعيش سعيداً هانئاً.

كانت زيارته قد أعاقت حشوداً من السادة العظام الذين جاؤا لرؤيتي. لأنهم أرادوا كما كان بعضهم يقول لبعض- مشاهدة ذلك الرجل صانع المعجزات! فلما غادرني دخلوا عليّ وأطالوا البقاء وقدم لي بعضهم الهدايا وعرض بعضهم الآخر خدماته. في تلك الأثناء عاد الحاكم الى البابا ونقل له ماقلته. وكان إبن البابا حاضراً وقد ملك العجب سائر الموجودين وقال البابا:

- إنه في الواقع عمل يجلُّ عن الوصف الكلامي.

وهنا تدخل السيد (پيير لويجي) قائلاً:

- لو أطلقته يا ابانا الأقدس لأقدم على أعمال أفظع. فهو اعتدائي الطبع مشاكس الى آخر حدٍ. اسمح لي ان اقصّ عليك واحدة من وقائعه لم تسمعها. فقبل ان يودَع السجن اختصم صاحبكم بنڤنوتو هذا مع سيّد من خاصة الكردينال (سانتا فيوري) حول ملاحظة بسيطة ذكرها عنه. هذه الملاحظة ردّ عليها بنڤنوتو بوقاحة وشراسة من يريد ان يثير قتالاً. فشكا السيد الأمر الى الكردينال فثار ثائره وقال لو انه تمكن من (بنڤنوتو) لأدّبه ولقنه درساً ينسيه تهوره. وعندما سمع (بنڤنوتو) ماقيل عنه حشا بندقية وشرع يتدرب على إصابة الهدف بها مطلقاً ناره على قطعة من النقد. وفي ذات يوم بينما كان الكردينال يطل من الشباك. تناول (بنڤنوتو) بندقيته وكان دكانه تحت قصر الكردينال - وتهيأ لإطلاقها، إلاّ ان الكردينال حُذّر فأسرع بالإنسحاب. ولكي يبدو الحادث صدفة غير متعمدة، اطلق بنڤنوتو النار على حمامة غابٍ كانت قد وكّرت في تجويف في أعلى القصر وأصابها في رأسها وهي شيء يكاد يكون مستحيلاً. والآن فلقداستك ان تتصرف به كما تختار، كل ما أردت من سرد هذه الواقعة هو تقديري بأنه قد يندفع يوماً ما بشعور الإنتقام لإعتقاله ظلماً الى إطلاق النار عليك. انه شرس الطباع للغاية مع إعتداد بالنفس وثقة لا حدّ لها. وقتله (پومپيو) خير شاهد، فقد طعنه بخنجره طعنتين في حنجرته حين كان محاطاً بعشرة رجال يحرسونه، ثم نجا منهم سالماً ومُلحقاً بهم العار وكلّهم رجال أشداّء.

وإتفق ان السيد المقصود من خاصة الكردينال (سانتا فيوري) كان موجوداً وهو ذاته الذي حصل بيني وبينه الخلاف فأسرع يؤيد قصة (پيير لويجي)، إلا أن البابا لم يعقّب على القصة بكلمةٍ ولو أنها ملأته حنقاً.

والآن أراني مضطراً الى أيضاح الحقيقة بأمانة، بخصوص هذه الحادثة:

في ذات يوم جاءني هذا السيد الذي هو من خاصة سانتا فيوري بخاتم ذهبي مبقع بالزئبق وقال "نظف هذا الخاتم وإستعجل به". وكنت منشغلاً بأعمال هامة بين يدي من الحلي الذهبية والأحجار الكريمة. فبسبب هذا ولإستيائي من صلافته ولهجته الآمرة وهي تصدر من شخص لم يسبق لي به معرفة ولم أكلمه من قبل فقد قلت له اني لا أملك جَلْوةً وعليه ان يأخذ خاتمه الى صائغ آخر فأجاب

فجأة وبدون سبب:

- إنك لحمار!

فأجبته إنك لمخطيء وأنا من ناحية الآدمية أفضل منك. أمّا إذا إستفززتني فستجد ركلاتي أقوى بكثير من ركلات الحمار.

فذهب الى الكردينال وقصّ عليه ماوقع وصوّرني له وكأني الشيطان بعينه. بعد الحادثة بيومين كنت أصوب بندقيتي الى حمامة غاب إتخذت لها وكراً في شق جدار مرتفع خلف قصر الكردينال. وكنت قد علمت ان الصائغ (جيوڤان فرانشسكو دللاّ تاكا) الميلاني حاول إصابتها بعدة عيارات فلم يوفق الى. وكان بيني وبينه منافسة في الصيد. وفي هذه المناسبة عندما كنت أطلق النار لم يكن يظهر من الحمامة إلاّ رأسها فقد زاد حذرها لكثرة العيارات التي أُطلقت عليها قبلاً. وفي هذه المرّة كان يوجد في دكاني لفيف من الأصدقاء والنبلاء فإسترعوا إنتباهي اليها قائلين:

- ارفع نظرك وانظر! إنها حمامة (جيوڤان فرانشسكو دللاّتاكا) وهو لايكلّ من إطلاق النار عليها. انظر الى المخلوقة المسكينة لقد بلغ بها الشك حداً لاتجرُء معه على إخراج رأسها.

فشخصت ببصري الى فوق وقلت:

- لو أنها إنتظرتني بقدر ما يقتضيني لتسديد سلاحي إليها فإن هذا الجزء الصغير الظاهر من رأسها يكفيني هدفاً.

فقال السادة النبلاء إن مخترع البندقية نفسه يعجز عن ذلك. فأجبت:

- حسن فلنراهن على قارورة من خمر پالومبو اليونانية. إن بقيت الحمامة على وضعها هذا حتى أهدّف إليها بالبروكاردو (وهو الإسم الذي أطلقته على بندقيتي) فإني سأصيب رأسها.

قلت هذا وسددت بندقيتي مستخدماً ذراعيّ لا غير كمسند. وحققت ما وعدتُ دون ان تكون لدي فكرة عن الكردينال او اي شخص غيره. في الواقع اني كنت اعدّ الكردينال احد القلائل الذين اعتزّ بمكانتي عندهم. ألا فليتأمل البشر جميعاً كم تخفي الأقدار من أوراق في كمّها عندما تنوي تحطيم إنسان وها هوذا الپاپا يكاد ينفجر حنقاً متمتماً لنفسه مكتئباً لما سمعه من إبنه.

بعد يومين من هذا توجه الكردينال (كورنارو) ليسأل الپاپا إسناد أسقفية لواحد من خاصته يدعى (اندريه چنتانو Andrea Centano) وكان الپاپا في الواقع قد وعده بالأسقفية، وقد شغرت الآن فذكّره الكردينال بوعده. فأقرّ الپاپا بصحة ذلك وقال انه ينوي البرّ بوعده. إلاّ انه يريد من نيافته ان ينيله فضلاً: ومايريده هو أن يدفع اليه بـ(بنڤنوتو).

فقال الكردينال:

- آه! لكن بعد أن عفا عنه قداستك ودفعت به اليّ بإعتباره مطلق الحرية؟ ماذا ترى سيقول الناس عنا؟

فردّ عليه الپاپا قائلاً:

- أنا اريد (بنڤنوتو) وانت تريد الأسقفية، فدعهم يتقوّلون بما يشاؤون.

فأخذ الكردينال الطيب يضرع الى الپاپا طالباً الأسقفية على ان يفكر في المسألة الأخرى وبعد هذا

سيعمل بكل ما يريده قداسته وماهو قادر على الأمر به. إلا أن الپاپا الذي كان شبه خجلان من الاسلوب الخبيث الذي اتبعه للنكول عن كلمته ردّ بقوله:

- سأرسل بطلب (بنڤنوتو)، ولأجل إراحة نفسي قليلاً سأضعه في إحدى غرف حديقتي الخاصة بالطابق الأرض حيث سيكون في وسعه أن يحقق شفاءه ويستعيد صحته. ولن أمنع زيارة أصدقائه كافة وسأتولى الإنفاق عليه حتى يزول هذا الهاجس الصغير عنيّ.

عاد الكردينال الى قصره، وبعث اليّ فوراً بالرجل الذي طلب له الأسقفية. ليقول لي ان الپاپا استعادني إلاّ انه سيسكنني في الطابق الأرضي من حديقته الخاصة حيث يمكن لكلّ من يريد زيارته مثلما يكون في بيته. فرجوت (أندريه) ان يتكرم ويبلغ الكردينال عني بأني أرغب أن أُحمل داخل فراشٍ من هنا وانقل الى محل مأمون خارج روما. لأنه إنما يبعث بي الى موت أكيد اذا ما وافق على تسليمي. ورجوته أن يتركني أتدبر مصيري بنفسي. ومن المعتقد أن الكردينال عندما سمع اقتراحي رغب جداً في ان يضعه موضع التنفيذ. إلاّ أن (أندريه) الذي كان يجري وراء الأسقفية كشف المسألة. فأرسل قداسته بطلبي فوراً ووضعني في إحدى الغرف المفضية الى حدائقه الخاصة في الطابق الأرضي. وأرسل اليّ الكردينال من يحذرني من تناول أيّ طعام يُقدم لي هناك ووعد ان يبعث بطعام من عنده. وقال انه ارغم على هذا العمل ونصحني بأن أبقي معنوياتي عاليةً وأنه سيساعدني على إستعادة حريتي.

في هذه الظروف كنت أستقبل الزائرين يومياً. مع عروض هامة بالمساعدة من كثير من النبلاء الكبار. وكان الپاپا يرسل طعاماً إلا أني لا أقربه وإقتصرت على ما يبعث به الكردينال (كورنارو).

من بين أصدقائي فتى يوناني في الخامسة والعشرين من العمر، ذو قوة بدنية خارقة الى جانب كونه أبرع من حمل السيف في روما. ومع إنه خائر القلب ينقصه الإقدام إلا أنه أهل للثقة عظيم السذاجة. كان قد سمع شيئاً عن وعد الپاپا بخصوص تعويضي عن كلّ المتاعب التي عانيتها وكانت نيته حقيقية في البداية وهذا ماقاله في الواقع. إلا أنه رجع عن كلامه بالأخير وأظهر خلافه، ولذلك إختليت بالفتى اليوناني وصارحته بما في نفسي، وقلت:

- يا أعزّ أخ. لقد صمموا على إغتيالي. وهذا هو وقت المساعدة إنهم يعتقدون بأنهم سيخدعونني بإظهار الرعاية والإكرام الفائقين لي، وسببه الوحيد هو تغطية ما يبيّتون لي.

فأجاب الفتى الطيب بقوله:

- عزيزي بنڤنوتو. الشائع في روما أن الپاپا قد أسند إليك منصباً يدرّ عليك مرتباً قدره خمسمائة كراون. لذا أرجوك أن لا تدع الشكوك تفقدك هذا الشيء الحسن.

فوضعت يدي على صدري متقاطعتين[٢٣٥] ورحت أتوسل به لإخراجي من المكان الذي أنا فيه. وأضفت: مع إني مدرك بأن في إمكان پاپا مثله ان يصلح حالي إلا أني على يقين بأنه يخطط للقضاء عليّ بشكل سرّي حفظاً للمظاهر وإنه يحاول جهده توجيه ضربة قاضية. لذلك ينبغي له ان يعمل

(٢٣٥) وهو أسلوب من أساليب رسم علامة الصليب.

بسرعة ويحاول إنقاذ حياتي. فإن ساعدني على الهرب بالطريقة التي شرحتها له فسأبقى الى الأبد مديناً له بالفضل. وسأظلّ مستعداً دائماً لوضع حياتي تحت تصرفه عند الحاجة. عندما بلغت في كلامي هذه المرحلة إنحدرت الدموع من عينيه، وقال:

- أخي العزيز. إنك مصمم على تدمير نفسك. لكني لا أستطيع أن أرفض تنفيذ ماطلبته. فإشرح لي الكيفية وسأعمل بكلّ ما ترسم وإن كان ذلك خلافاً لرغبتي.

سوّينا الموضوع بهذا الشكل وشرحت له خطتي. وكان نجاحها من السهولة بمكان. على انه عدل عن الأمر في الوقت الذي كنت أتصور بأنه قد بدأ في إتخاذ الخطوات العملية لما رتّبت. وجاءني ليقول انه عزم على ان يعصيني لخيري ومصلحتي وانه على ثقة تامة من كلّ ما سمعه من أقرب المقربين للپاپا أولئك الذين هم على إطلاع تام في قضيتي. فأُسقط في يدي وإستسلمت الى اليأس والغمّ وكان ذلك في عيد القربان (عيد الجسد) في العام ١٥٣٩.

مرّ اليوم بأكمله، وفي ليلته بالذات بعد هذه المجادلة الكلامية جيء بطعام كثير من مطابخ الپاپا. وبكمية أخرى فاخرة من قصر الكردينال كورنارو. وإتفق إن كان عندي عدد من الأصدقاء فإستبقيتهم لمشاركتي في العشاء وكنت أثناء ذلك في فراشي وساقي مشدودة الى ألواح خشبية. إلا أني إستأنست بهم وطال بقاؤهم. وبعد أن مضى من الليل ساعة تركوني وإنصرفوا وقام إثنان من خدمي بإعدادي للنوم ثم إنصرفا لينام في الغرفة الخارجية وكنت أحتفظ بكلب أسود فاحم كثّ الشعر مدرب على الصيد يلازمني ملازمة الظل ولايبتعد عني أكثر من خطوة وينام تحت سريري اثناء الليل. في تلك الليلة ناديت الخدم ثلاث مرات على الأقل ليأخذوه عني لأنه كان يهرّ هريراً مريعاً. ولما دخلوا هجم عليهم وحاول أن يعضّهم فأحجموا وخافوا من أن يكون مسعوراً إذ راح يعوي بدون إنقطاع. وإنصرم من الليل أربع ساعات تقريباً وأنا على هذه الحال. ثم وبينما كانت الساعة تدق دخل (البارجلّو) غرفتي يتبعه عدد كبير من رجاله فبرز الكلب من تحت الفراش وحمل عليهم بوحشية، ممزقاً معاطفهم وجواربهم وظنوا من فرط هلعهم انه مسعور. إلا أن (البارجلّو) وهو رجل ذو خبرة قال لهم:

- إنه لشيء طبيعي أن يعرف الكلب الأصيل بغريزيته الخطر الذي يهدد صاحبه قبيل وقوعه. فليتسلح إثنان منكم بالعصي وليضرباه حتى يخرج وليقم البقية بربط (بنڤنوتو) بهذا الكرسي. وليؤخذ الى حيث أُمرتم بأخذه.

كما قلت كان يوم عيد الجسد قد إنقضى والوقت يشير الى الساعة الرابعة ليلاً تقريباً. فحملوني وأنا تحت الأغطية لايبين مني شيء. يتقدمني أربعة منهم لتفريق قلة من المستطرقين الذين مازالوا في الشوارع. وبها الشكل جاؤوا بي الى موضع يدعى (توري دي نونا)[٢٣٦] حيث وضعوني في غرفة المحكوم عليهم بالموت. طرحوني فوق فراش رثّ. وخلفوا معي واحداً منهم ظلّ طوال الليل يندب حظه العاثر ويلعن سوء طالعي مردداً قوله:

(٢٣٦) كان سجن المجرمين الإعتياديين في روما وقد سبق ذكره.

- اسفي عليك يا بنڤنوتو المسكين! ماذا فعلت بهم؟

من وجودي في هذا المكان ومن القول الذي أسمعنيه الحارس أيقنت بأني من الهالكين. وقضيت شطراً من الليل وأنا أجهد عقلي بتعليل مشيئة الله في معاقبتي بهذا الشكل. ولما لم أجد سبباً وجيهاً فقد إشتد إضطرابي وراح الحارس يبذل مافي طوقه لتهدئة روعي وتسليتي ولكني رجوته بمحبة الله أن يسكت ولايوجّه اليّ كلاماً. إذ سيكون في وسعي وأنا بمفردي أن أعمل على إراحة نفسي وضبط أعضابي بسرعة. فوعدني بذلك.

عندئذ تحولت بكليّتي الى الله متضرعاً بحرارة لكي يقبلني في ملكوته وذكرت في صلاتي بأني كنت قد تظلمت لأني بالنظر الى القوانين لا أستحق هذه النهاية. وإن كنت قد إرتكبت جرائم قتل فإن نائبه جلّ جلاله قد إستدعاني من مسقط رأسي وعفا عني بسلطة الشرائع البشرية وبسلطانه الروحي. فضلاً عن أن كلّ ما أقدمت عليه كان محافظة مني على الجسد الذي منحه لي عزّ وجلّ. لذلك لا أراني أستحق هذه النهاية عند النظر في أحوالنا في هذه الدنيا. وقد بدا وكأن مثلي مثل السائر السيء الحظ في شارع، تسقط على رأسه صخرة من إرتفاع كبير فتقتله. من الواضح أن هذا من تأثير طالع الإنسان. وهذا لايعني أن الأقدار تكيد لنا معاً أو تخطط لإسعادنا. لكننا جميعاً نخضع لتأثير صدف إقتران النجوم بعضها ببعض. إني على معرفة بأني حرّ الإرادة. وأعرف عن يقين بأني لو كان إيماني كإيمان القديسين فإن ملائكة السماء ستأتي وتخرجني من هذه الزنزانة وتبسط عليّ حماية أكيدة من المحن والأرزاء التي أعانيها. ولكن مادام لايجدني أهلاً لهذه النعمة فمعنى هذا أن تأثير الأفلاك سيعمل عمله السيء في مصيري. إسترسلت في تأملاتي هذه بعض الوقت ثم هدأت نفسي وغلبني النوم.

أيقظني الرجل عند الفجر وقال:

- إنك رجل صالح ولكنك سيء الطالع!

قلت:

- كلما عجّلت بالخروج من سجن هذه الدنيا كلّما كان سروري كبيراً، لاسيما وأنا واثق من خلاص نفسي وبأني أموت ضحية ظلم وعدوان. إن مخلصنا سيحشرني ضمن قديسيه وصديقيه ورسله الذين قُتلوا مثله ظلماً. والآن وقد جاء دوري لأُعدم الحياة دون حق، لايسعني إلا أن أتقدم بالشكر لله مخلصاً. لماذا لايأتي الرجل الذي سينطق بحكم الموت؟
- إنه مضطرب جداً وهو يبكي.

وهنا ناديته بإسمه (بنديتو دا كالي Benedetto da Cagle) وقلت:

- تقدم مني ياعزيزي (بنديتو) فأنا مستعد تماماً ومتمالك زمام أعصابي. إنّه لممّا يكسبني مجداً وفخراً أن أموت وأنا بريء، لا أن أموت وأنا مستحق الموت. تقدم منيّ أرجوك وجئني بالكاهن لأسرّه بكلمات قليلة، لا لحاجة تدعوني الى الإعتراف. فقد سبق لي أن تقدمت بإعترافي المقدس للّه تعالى. إلا أني أريد إكمال الفرائض التي سنّتها كنيستنا المقدسة، أمنا الحنون التي أقدمت على

هذا الخطأ العظيم بحقي فكان من دواعي سروري أن أغفر لها. فهيا إذن ياعزيزي (بنديتو) وعجّل بما أنت في سبيله قبل أن يتغلب عليّ شعور آخر.

بعد أن إنتهيت من أقوالي هذه أمر هذا الرجل العالي الخلق، السجّان بإقفال الباب عليّ. لأن تنفيذ الحكم لايمكن أن يجري إن لم يكن هو موجوداً. وبعد هذا أسرع الى دار زوج السنيور (پيير لويجي) التي كانت مع الدوقة (وهي التي سبق ذكرها). وعندما صار أمامها قال:

- سيدتي الجليلة. تكرّمي عليّ بتحقيق رجائي محبة للّه وأسألي البابا إن يبعث بشخص آخر غيري ليبلغ (بنڤنوتو) بحكم الموت. ويقوم بالإجراءات التي تتطلبها مني وظيفتني. لأني أتنصّل منها ولن أزاولها مرّة أخرى.

ثم إنصرف متنهداً من أعماق قلبه وهو مثقل بالهمّ.

وقالت الدوقة وكانت حاضرة وقد ظهر عليها الغضب:

- تلك هي العدالة التي يجدها المرء في الـ (روما) التي يحكمها نائب المسيح! إن الدوق زوجي الراحل كان عظيم التقدير لهذا الرجل بسبب سمو خلقه ومواهبه العظيمة. وكان يودّ أن يبقى الى جانبه وقد عارض في مجيئه الى روما.

ثم إنصرفت وهي تتمتم لنفسها بإنفعال وحنق. وعندها توجهت عقيلة السنيور (پيير لويجي) وإسمها (السنيورا چيروليما) الى البابا وألقت بنفسها عند قدميه بمحضر من عدد من الكرادلة وراحت تتشفع بحرارة جعلته يحمرّ خجلاً ويرد بقوله:

- لأجلك سندعه يعيش. وإن كنّا في الواقع لم نحمل ضغينة له أو نبيّت له شراً.

ولم يُضف هذه العبارة الأخيرة إلا لوجود الكرادلة هناك وسماعهم كل ماقالت تلك المرأة العظيمة الثابتة الجنان.

كنت أنتظر وأنا أرتجف رعباً وقلقاً وقلبي يدقّ دقات عنيفة وكان كلّ من أُوكل لهم تنفيذ هذه المهمة الكريهة في حالة مشابهة لحالتي ينتظرون وهم في أشدّ حالات البؤس والإضطراب. ولكنهم تفرقوا بعد وقت العشاء وإنصرف كلّ لشأنه وجيء إليّ بشيء أتبلّغ به. فعجبت لهذا وقلت لنفسي:

- الآن تغلّبت الحقيقة على طبيعة الشرّ في نجمي. وأني لأدعو من اللّه بأن تقضي مشيئته بنجاتي من هذه العاصفة.

وشرعت في تناول الطعام. ولما كنت قد سلمت أمري الى سوء طالعي فقد بدأت الان آمل بطالع حسن. أكلت بشهية وبقيت أنتظر ومرّت فترة من الليل تقارب الساعة دون أن أسمع أو أرى أحداً ثم دخل على إثرها (البارجلّو) مع ثلة من الحرس ووضعوني على نفس الكرسي التي نقلوني به ليلة أمس من ذاك المكان. ثم وبعد أن كرر عدة مرات بلطف وبلهجة عطوفة بأن ليس ثمّ مايدعو الى قلقي أمر رجاله بتحاشي الإصطدام برجلي المكسورة. وأن يعنوا بي عنايتهم بأعينهم فأطاعوه وحملوني الى القلعة التي هربت منها وأصعدوني الى آخر طبقةٍ من البرج وأقفلوا عليّ باب باحة صغيرة برهةً من الوقت. وجيء بالمحافظ محمولاً وهو مريض وفي أسوء حال. فقال لي:

- أترى كيف نلتكَ ثانيةً؟

أجبت:

- أجل ولكن أترى كيف هربت كما عاهدتك القول؟ ولو لم أُقايَض بأسقفية مقرونة بتعهد وضمان پاپوي للكردينال البندقي من فارنيزي الروماني وكلاهما خدشا وجه الشريعة الإلهية، لما إستطعت أن تمسك بي ثانية. والآن وبعد أن سلكا هذا السبيل الشائن فلا جناح عليك أن فقتهما في سوء العمل لأني ما عدت أهتم قلامة ظفر بهذه الحياة.

فراح المسكين يصرخ بأعلى صوته قائلاً:

- الله! الله! إنه لايهتم أعاش أو مات وهو الآن أكثر جسارة مما كان وهو معافى. ضعوه هناك تحت الجنينة وحذار أن يكلمني أحد عنه مرة أخرى إنه سيكون علّة موتي.

حُملت الى ما تحت الجُنينة أُودعتُ غرفة حالكة الظلام شديدة الرطوبة تملؤها العناكب الكبيرة والدود المؤذي. وقذفوا بفراش بالٍ من القنب على الأرض، وتُركت دون طعام تلك الليلة خلف أبواب مقفلةٍ أربعة. وبقيت على هذه الحال حتى الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي فجيء اليّ بطعام تبلّغت به. ثم طلبت منهم أن يأتوني ببعض كتبي لأطالع. فلم يردّ عليّ أحد منهم. إلاّ أنهم أبلغوا المحافظ التاعس بطلبي الذي سألتهم أن ينقلوه له. في اليوم التالي دفعوا اليّ بكتابي المقدس الأيطالي وبكتاب آخر يتضمن "أخبار جيوڤاني ڤيلاّني" فطلبت بعضاً من كتبي الأخرى فأجابوا:

"لا يمكن تزويدك بأكثر من هذا وما لديك كاف ويزيد عن الحاجة" ولذلك أمضيت الوقت وأنا في أتعس حال فوق فراش رطب مهلهل أخذ ينزّ ماءً بعد إنقضاء ثلاثة أيام، وكنت عاجزاً تماماً عن الحركة بسبب ساقي المكسورة. فأزحف على ركبتي ويدي كلما أردت ترك الفراش لقضاء الحاجة. مقاسياً أشدّ الآلام وأنا أحاول عدم تلويث البقعة التي أنام فيها. وكان ينفذ الى غرفتي شعاع حائل اللون لمدة ساعة ونصف ساعة كلّ يوم من ثقب ضيق فأستعين به على القراءة لهذه الفترة القصيرة من الوقت فحسب. وأما ما تبقى من ليلي ونهاري فقد كنت أمضيه صابراً في الظلام الحالك متجهاً بفكري الى الله ومتأملاً ضعفنا البشري. وأيقنت أن حياتي الشقيّة ستنتهي خلال أيام قلائل في هذه الظروف وهذا المكان. على أني تعللت بالتصبّر والتسلّي بالمفاضلة بين الموت تحت النطع بسكّين الجلاد والعذاب الفظيع الذي يرافق تنفيذ ذلك، وبين ملاقاة الموت وأنا شبه مخدّر أثناء النوم وكيف أن هذا سيكون أحسن نهاية بكثير لحياتي. وشعرت بقواي تخور شيئاً فشيئاً حتى غدا تكويني المتين عادةً، معتاداً عذاب (المطهر) الذي أقاسيه. ثم وبعد أن طرء عليّ هذا الشعور وكيّفت نفسي له. صح عزمي على إحتمال محنتي العظمى مادام فيَّ نفَس يتردد.

شرعت أقرأ الكتاب المقدس من الأول، قراءة تأمل وإيمان وقد سحرني بحيث صرت أتمنى أن أقضي كلّ وقتي فيه لولا إفتقاري الى النور، فكانت آلامي تجيش وتهاجمني حالما ينحسر النور عنيّ. كان عذابي شديداً بحيث صممت أكثر من مرة على وضع حدّ لحياتي بيديّ. على أنهم لم يسمحو لي بسكين ولهذا لم يكن من السهل تنفيذ ذلك. وفي أحد المرات تناولت عارضة خشبية كانت ملقاة

ورفعتها وجعلتها في وضع يمكن ان تسقط به كما يسقط الفخ. أردتها أن تهوي على رأسي فتهشمه تهشيماً مرةً واحدة. وعندما هيأت كلّ شيء وهممت بكلّ تصميم أن أعدّها للضربة القاضية وتقدمت ماداً يدي لإسقاطها ماشعرت إلاّ وبقوة خفية تقبض على يدي وتقذف بي مسافة أربعة كوبيتات الى الخلف. فإعتراني خوف عظيم وبقيت في مكاني مشلولاً جسماً وروحاً من الفجر حتى ماقبل الليل بخمس ساعات، أي عندما جاؤوني بالغداء، لابد وأنهم جاؤا قبل هذا عدة مرات ولم أفطن إليهم.
وسمعت صوت الكابتن (ساندرينو مونالدي Sandrino Monaldi) وهو يقول:
– واسفاً على الرجل التعس، كان من العباقرة الأفذاذ؛ والآن تأملوا النهاية التي آل إليها.
فتحت عيناي عند سماعي هذا لأجد بعض الكهنة بحللهم الكهنوتية، فصاحوا:
– آه! قلت لنا إنه قضى نحبه.
فقال بوزا:
– وجدته ميتاً ولهذا قلت لكم إنه توفي!
فأسرعوا بإنهاضي، ورفعوا الفراش الذي كان أشبه بصحفة من المعكروني ورموه خارج الغرفة. وعندما أعلموا المحافظ بذلك أمر بتزويدي بآخر.
عندما فكرت بالجهة التي أحبطت محاولتي رجحت أنها قوى آلهية، إنها ملاكي الحارس. في الليلة التي تلت رأيت حلماً عجيباً، رأيت فتىً بهيّ الطلعة تقدم منيّ وراح يؤنبني بقوله:
– أتدري من الذي منحك هذا الجسد الذي هممت بإتلافه قبل أن يحين أجله؟
وتراءى لي بأني أجبته بأن كلّ ما أقدمت عليه هو بأمرٍ من الله رب الطبيعة.
فأجاب:
– إذن فأنت تستخف بأعماله وتريد تدميرها؟ دعه يرشك ولاتفقد الأمل من سلطانه المنقذ.
ونطق بالكثير من العبارات البليغة لا أتذكر واحداً بالألف منها. وبدأت أستيقن بأن هذا الكائن الملائكي قد نطق بالحق. ثم أجلتُ أبصاري بالزنزانة فإستقرت على قطع من الآجرّ المكسّر. فحككت واحدة بالأخرى وعملت معجوناً ثم تقدمت من الباب زاحفاً على ركبتي ويديّ وكسرت من حافة الباب الخشبي الحادة بأسناني شظية. بعد هذا جلست أنتظر موعد تسلل الضياء الى محبسي، فورد أولاً قبل المغرب بثلاث ساعات ونصف الساعة، وبقي ساعة واحدة. فبدأت أكتب بخير مايمكنني من صفحات الكتاب المقدس غير المطبوعة. أخذت ألوم قواي العقليّة لأنها ضاقت ذرعاً بالحياة. فأجابت تلك القوى جسدي معتذرة بالآلام المبرّحة. ثم تمسك جسدي بالأمل في إنصلاح الأمور وقد كتبت كلّ هذا على شكل محاورة هكذا:

"ياقواي الروحية المعذّبة، مالذي يجعلك بهذه القسوة لتكرهي الحياة؟" "إن شئت أن نعمل ضد إرادة السماء فمن سيعيننا في نضالنا؟" "ألا فلنذهب، نبحث عن حياة أفضل." "صبراً ولاتستعجل الذهاب. فالسماء وعدت أن تسعدنا أكثر من ذي قبل." "سنبقى في الأعماق فترة." "فإذا شاء الإله الأعظم أن يشملنا بنعمائه فلن نعرف

الألم بعد الآن."

عادت إليّ قواي العقلية وبعد أن هدأت نفسي بما أملك من قدرة، واصلت قراءة الكتاب المقدس، وإعتادت عيناي الظلام. فصرت أستطيع القراءة ثلاث ساعات بعد أن كنت أعجز عن ذلك في ساعة ونصف الساعة. وأخذت أفكر مليّاً في قدرة الله العجيبة وقوة تأثيرها في نفوس البسطاء الذين يظلون مقيمين على أيمانهم الراسخ بأن الله سينيلهم حتماً مايصبون إليه وأكدت لنفسي أنا الآخر بأن الله سيساعدني أيضاً بسبب رحمته الإلهية الواسعة، ولكوني بريئاً. وبقيت بإتصال مستمر معه، أصليّ له آناً، وأستغرق في تأملاتي فيه آناً. وكانت غبطتي في تأملاتي هذه بالله على هذا النحو بدرجة من الزخم بحيث أنستني كل آلامي السالفة. ورحت طول اليوم أرتّل المزامير. وقصائد من نظمي موجهةً إليه تعالى. على أنه كان ثمّ شيء واحد يورثني أعظم الألم فما حدث هو أن نَمَت أظافري وإستطالت فمنعتني من لمس جسمي دون إحداث خدش فيه. وتعذّر عليّ إرتداى ثيابي إلا بعد طيّ الأظافر الى أمام أو خلف وكان هذا مصدر عذاب لي. في عين الوقت بدأ التسوس ينخر أسناني ويعمل في جذورها تخريباً، وقد إنتبهت الى ذلك عندما أصبحت الأسنان السليمة تدفع الأسنان الميتة. وأخذت تثقب لثتي شيئاً فشيئاً وبدأت الجذور تخرج من تجاويفها. لما أدركت الأمر صرت أسحبها بنفس السهولة التي أسحب بها سيفاً من غمده دون ألم أو نزف. روّضت نفسي على كل حال- وتحملت هذه البلايا الجديدة وتواصلت أيامي وأنا بين تراتيل المزامير والكتابة بمعجون الآجرّ الذي أتيت الى ذكره. وشرعت أكتب قصيدة على رويّ (كاپيتولو)[٢٣٧] في مدح السجن. وصفت فيها كلّ ماوقع لي فيه. وسأثبتها هنا في محلها المناسب.

وكان المحافظ الطيب يتتبع أمري كثيراً وبصورة سرية ويراقب أحوالي بوساطة مرؤوسيه. وقد وجدني في آخر يوم من شهر تموز وأنا ممتليء حبوراً، مفكراً لنفسي أنه مناسبة لإحتفال عظيم يقام في روما عادة في أول يوم من شهر آب فرحت أقول لنفسي:

- كنت كلّ السنين المنصرمة أقضي هذا العيد المفرح في تعاطي صنوف اللهو والعبث أما في هذه السنة فسأقضيه في التأملات بالأمور الإلهية والتهجّد لله.

ثم أردفت:

- لكم أحسّ الآن بالراحة والسعادة، ممايفوق ما كنت أشعر به بمراحل!

وقد سُمعتْ هذه العبارة، فنُقلت الى المحافظ فقال بلهجة الحانق المستغرب:

- رباه! إنه سعيد وسط بؤسه، وفيما هو يحقق إنتصاره هذا، أعاني أنا من العذاب وسط كثير من أسباب الراحة. إنه وحده هو الذي سيوردني حتفي أسرعوا إليه وأقذفوا به الى أعمق جبٍّ. الجبّ الذي مات فيه (فوايانو Foiano)[٢٣٨] الواعظ جوعاً. لعل حبوره سيزول عنه عندما يجد نفسه في

(٢٣٧) وهي القصيدة الطويلة التي يجمع فيها الناظم وقائع كثيرة. ويطلق عليها عادة إسم (الملحمة).

(٢٣٨) هو الراهب بنديتو تيبّزي من مدينة فوايانو. كان منتمياً الى رهبنة القديسة ماريا نوڤيللا في فلورنسا وواحد من أنصار ساڤونارولا. دأب على الوعظ بحماسة وحرارة منددأ بإستبداد آل مديتشي في أيام حصار فلورنسا.=

هذه الحال.

وأقبل عليّ الكاپتن (ساندرينو مونالدي) يصحبه حوالي عشرين من أعوان المحافظ. فوجدوني راكعاً. ولم ألتفت إليهم أو أتحرك عندما دخلوا وواصلت صلاتي. كنت أمجدّ الله الأب وهو محاطٌ بالملائكة، والمسيح وهو يُبعث حياً منتصراً، وهي الصورة التي كنت قد رسمتها على الجدار بقطعة فحم نبشت عليها في أرضية الغرفة. كان قد مضى عليّ أربعة أشهر وأنا مستلق على ظهري في فراشي بساقي المكسورة. وكثيراً ماحلمت بأن الملائكة جاءتني لتصلح ساقي وتشفيني. فبعد هذه الأشهر الأربعة جُبر عظم الساق وعاد كأنه لم يُكسر.

دخلوا عليّ وصليل أسلحتهم مرتفع وكأنهم يواجهون غولاً أو تنيناً يقذف ناراً وقال الكاپتن:

- تعلم كم يبلغ عددنا. والضجّة الكبيرة التي أحدثها دخولنا إلاّ أنك لم تتحرك.

من كلماته أدركت البلاء العظيم الذي ينتظرني منهم. ولكن لمّا كان سوء الحظ قد صار جزءً من وجودي فقد أجبته:

- الى هذا الربّ الذي يرعاني، إليه ذلك الذي هو في السماء، أودعت روحي وقلبي وقوة إدراكي. تاركاً مايعود لكم بالضبط. إنكم لاتستحقون أن تتطلعوا الى ماهو حسن فيّ ولايمكنكم لمسه. وإعملوا بالذي يخصكم منيّ كلّ ما تتمكنون عليه.

وبان الخوف على الكاپتن، لأنه لم يكن يدري ما أنوي أن أصنع، فتوجه الى أربعة من أقوى حرّسه بنية وقال:

- إنزعوا أسلحتكم.

وأضاف بعد أن فعلوا ما أمرهم به:

- والآن أطبقوا عليه بسرعة وأمسكوه، مابالكم؟ وفينا ما يكفي ليجعلنا في مأمن من الخوف حتى من الشيطان نفسه حكّموا قبضاتكم عليه كيلا يفلت منكم.

فأمسكوا بي وبدأوا يستخدمون معي الخشونة. وعندها صرت أتوقع أعظم الشرّ، فرفعت أنظاري الى السيد المسيح وقلت:

- أيها الربّ العادل. أنت قدمت نفسك كفّارةً عن كلّ خطايانا بموتك على صليبك الجليل، فلماذا وجب على براءتي أن تدفع ديون شخص آخر لا معرفة لي به؟ إن كانت هذه مشيئتك، فما عليّ إلاّ الرضا بها.

وحملوني وساروا بي على نور مشعل ضخم وظننت أنهم سيلقون بي في مايسمى "حفرة- سامّالو Sammalo"[٢٣٩] وهو جبّ مخيف إبتلع جوفه عدداً كبيراً من الأحياء قذف بهم الى بئر يقع في أسس القلعة الراسخة في الأرض. لكنهم جنّبوني أياه وإعتبرت نفسي سعيداً عندما ألقوا بي في الزنزانة

=سجنه كليمنت السابع وقطع عنه الطعام فمات جوعاً في سانت انجلو.

(٢٣٩) في طبعات وترجمات للمذكرات (روكسوني، وڤاليري) أن إسم هذا المكان الرهيب مشتق من إسم القديس (سان ماروكو). لأن أيقونة أو صورة لهذا القديس قد ثبتت فوق فوهة هذا الجبّ.

القذرة التي ذكرتها سابقاً وفيها مات الواعظ الفواياني جوعاً. ثم إنهم تركوني من دون أن يلحقوا بي أذى آخر. ولمّا صرت وحدي بدأت أرتّل تسابيح "من الأعماق صرخت ...De profondis" و"الرحمن يا أالله Missrere" و"رجائي بك يارب Inte domine speravi". وأمضيت عيد الأول من آب مع الرب يكاد قلبي يتفجّر بالأيمان والأمل طوال اليوم. وفي اليوم التالي أعادوني الى زنزانتي الأولى حيث كنت قد رسمت أولى تلك الصور التخطيطية للرب. ولمّا إحتوتني الغرفة وعدت الى رسومي لم أتمالك نفسي من البكاء لفرط فرحي وسعادتي. بعد هذا أمر المحافظ بأن يُنقل إليه يومياً كل ما أقوله وأفعله وكان الپاپا مطلعاً على كلّ ظروف مرض المحافظ مع العلم ان الأطباء قد قطعوا كلّ أمل بشفائه؛ فقال تعقيباً:

- قبل أن يموت أريده ان يقضي على حياة (بنڤنوتو) بأي شكل يختاره فهو سبب موته ولهذا فلن يموت إلاّ بعد أ يصيب ثأره منه.

وعندما نقل پيير لويجي قوله هذا للمحافظ، قال هذا:

- إذن فالپاپا يدفع اليّ (بنڤنوتو) ويريد منيّ أن أصيب ثأري فيه؟ دع القضية لي.

إذا كان الپاپا قد غصّ بحقده عليّ. فالذي يبدو لأول وهلة أن كره المحافظ لي أشد نكراً وأخبث من حقد الأول. وفي هذه المرحلة اقبلت عليّ تلك الروح غير المرئية التي حالت بيني وبين عزمي على قتل نفسي. فهزتني هزاً ورفعتني فوقفت على قدمي وأنا لاأراها ولكنيّ أسمعها جيداً:

- أسرع يا بنڤنوتو، اسرع الآن وتوجه الى الله وقل صلاتك. اطلقها بأعلى صوتك.

فإمتلأت رعباً وخررت راكعاً وبدأت أتلو كثيراً من أدعيتي وصلواتي بصوت جهير. ثم تلوت "من يسكن المغارة ?Qui habitat in adjutorio" ثم تبادلت الحديث معه سبحانه وتعالى. وجاءني في التو الصوت بنفسه- واضحاً رائعاً:

- إذهب وإسترح، ولاتخش شيئاً بعد الآن.

وماحصل هو هذا: إن المحافظ بعد أن أصدر أمراً جازماً بقتلي، عاد فجأة وألغاه وقال:

- أليس هذا هو (بنڤنوتو) ذاك الذي بسطت عليه حمايتي وندبت نفسي للدفاع عنه بكلّ حرارة. والذي كنت متأكداً من براءته وبأنه يعاقب ظلماً وعدواناً؟ كيف أرجو رحمة الله ومغفرة لذنوبي ان لم أغفر للذين أساؤوا اليّ كثيراً؟ أيترتب عليّ أن أسيء الى رجل بريء فاضل خدمني وأكرمني؟ كلا ثم كلاّ فبدلاً من القضاء على حياته سأهبه الحياة والحرية وسأكتب في وصيتي بألاّ يطالبه أحد بأي شيء من المال الكثير الذي أنفقته عليه في سجنه.

وأبلغ الپاپا بما قاله المحافظ وإستاء كثيراً.

في تلك الأثناء كنت أديم تلاوة صلواتي المعتادة مع نظم قصيدتي وبدأت أرى أحلاماً جميلة سعيدة كلّ ليلة، تلازمني فيها تلك الروح غير المرئية التي كنت أسمعها كثيراً ومازلت. سألتها فضلاً واحداً لاغير هو أن تأخذني الى حيث أستطيع رؤية الشمس وقلت بكل إخلاص إني لأرغب في أن أتطلع الى الشمس مرة واحدة فقط ثم أموت سعيداً. كلّ ماقاسيت من عذاب هذا السجن، كلها

أصبحت عندي ذكريات عزيزة ومفرحة ولم تعد بعد الآن تورثني الإضطراب. مع هذا كان أعوان المحافظ يلحّون عليه بشنقي من مسنن السور الذي هبطت منه. ولما وجدوا سيدهم قد عدل نهائياً عن هذه النيّة، ساءهم الأمر كثيراً وراحوا يحاولون بشتى الطرق إبقائي في حالة خوف عظيم. على أني كما بيّنت، تعودت المضايقات ولم أعد أخشى شيئاً. وكلّ ما كنت أصبو إليه هو أن أرى في حلم من أحلامي قرص الشمس فواصلت صلواتي المخلصة متوجهاً بها رأساً الى السيد المسيح بحرارة وأنا لا أنفكّ من تلاوة هذا الدعاء:

– يا إبن الله الحقّ! إني أتضرع إليك بحقّ ميلادك الطاهر، وبحق موتك على الصليب وبحق قيامتك المجيدة، إجعلني مستحقاً رؤية الشمس حتى ولو كان ذلك في الحلم. فإن شاءت إرادتك أن أراها بعينيّ هاتين الفانيتين فإني ناذر الآن الحج الى ضريحك الأقدس.[٢٤٠]

هذا الدعاء الى الله والنذر كان في الثاني من شهر تشرين الأول ١٥٣٩[٢٤١]. وفي اليوم التالي الثالث من تشرين إستيقظت قبل طلوع الفجر وبزوغ الشمس بساعة تقريباً فنهضت من زاويتي الحقيرة وتدثرت بقطعة رثة لأن البرد كان شديداً وبدأت وأنا واقف أصليّ بحرارة أكثر من السابق طالباً من السيد المسيح أن ينعم عليّ من جوده بإيضاح الإثم الذي أقدَّم عنه هذه الكفّارة الكبرى، على الأقل عن طريق الوحي الإلهي. وبما إني لم أحظ منه بفضل إراءتي الشمس ولو في أحلامي فقد رجوته، بكلّ عزته وجبروته أن يتنازل ويعرّفني بالسبب الذي من أجله نلت هذا العقاب.

ما أن نطقت بهذا القول حتى وجدت نفسي محمولاً مسافة بعيدة وكأني على بساط من الريح. نُقلت الى غرفة حيث بدا لي ذلك الكائن الخفي واضحاً مرئياً على شكل شاب في مقتبل العمر يشع النور في محياه وهو في منتهى الجمال إلا أن جماله من النوع الوقور لا من النوع الحسّي، فدعاني للدخول بقوله:

– هؤلاء الناس الذين تراهم هم ولدوا منذ الأزل ثم توفوا.

فسألته عما حدا به الى الإتيان بي، فأجاب:

– تعال معي ولا تلبث أن تفهم.

وجدت نفسي وأنا لابس زرداً وبيدي خنجر. وقادني بهذا الشكل خلال تلك القاعة الواسعة وهو يريني كل هؤلاء الناس يتجولون هنا وهناك بألوفهم المؤلفة. وبلغ بي باباً فولجه قبلي الى موضع أشبه بزقاق ضيق. وعندما جذبني خلفه وجدت نفسي دون سلاح مرتدياً ثوباً أبيض وأنا حاسر الرأس أقف عن يمينه وقد ملكني العجب لما حصل. وتعذّر عليّ أن أتبين ماهية الزقاق لكني رفعت رأسي فإذا بي أرى نور الشمس ينعكس على جدار شبيهه بواجهة منزل فوق سمت رأسي تماماً. فقلت:

– أيها الصديق ماذا يترتب أن أفعل لكي أرفع نفسي بحيث يتسنى لي رؤية قرص الشمس بالذات؟

فأراني درجاً عظيم الإرتفاع عن يمين وأجاب:

(٢٤٠) أي الى زيارة بيت المقدس أورشليم. وهو أعظم نذر في ذلك الزمن.

(٢٤١) يكون قد مرّ على إعتقال چيللييني سنة واحدة تنقص أسبوعين.

- إذهب الى هناك لوحدك.

فسرت عنه وأخذت أصعد الدرج العظيم بمفردي ووجهي يقابل الطريق الذي جئت منه وأخذت أشعر بإقترابي من الشمس شيئاً فشيئاً، فإحتثثت الخطى وصرت أرتفع وأرتفع حتى إنكشف أمامي قرص الشمس كله وبهرت أشعتها الساطعة عينيّ فأغمضتهما تلقائياً. ولكني فتحتهما عندما أدركت غلطتي وأخذت أبحلق بالشمس بنظر لايريم وصرخت:

- الشمس! إنها الشمس التي طالما صبوت إليها! لن أريد شيئاً آخر غيرها بعد الآن، وإن أصابني نورها بالعمى.

بقيت وأنظاري شاخصة إليها لاتتحول وبعد أن مكثت هناك فترة وجيزة رأيت قوة تلك الأشعة الهائلة ترتمي على الجانب الأيسر من الشمس وبقيت الشمس صافية الأديم دون أشعتها. فحدقت فيها بفرح غامر متعجباً من كيفية إنحسار الأشعة عنها. بدأت أفكر في النعم الإلهية التي منحني الله أياها في صباح هذا اليوم، فهتفت:

- يا للقوى العظيمة! يا للفضيلة الممجدة! كم من النعم العظيمة اغدقت عليّ بما فاق مأمولي؟

بدأت الشمس الخالية من أشعتها مثل حمام مليء بأنقى الذهب الذائب. وفيما أنا واقف أفكر في هذه الرؤيا العجيبة بدأ مركز الشمس ينتفخ ويتجسم حتى أصبح بالأخير متخذاً شكل السيد المسيح وهو مسمّر على الصليب، مسبوك من مادة الشمس نفسها. وبدا بجمال يسلب اللبّ وبهيئة ساحرة بحيث يعجز تصور المرء أن يصل الى واحد بالألف مما رأيته منه. وهتفت وأنظاري عالقة بالصورة:

- معجزة! معجزة! رباه، رحماك يارب. أيها القوى اللامتناهية. أي أعجوبة هذه التي سمحت لي بمشاهدتها في هذا اليوم؟

وبينما كانت أبصاري عالقة، وأنا أقول هذا، تحركت صورة المسيح وإنحازت الى جانب من الشمس الذي تحولت اليه الأشعة. وإنتفخ مركز الشمس مرة أخرى وأخذ يكبر حتى إتخذ هيئة السيدة العذراء مريم بأكمل حسنٍ- وهي جالسة على عرش والطفل بين ذراعيها وهي تبتسم. وكان ثمّ ملاكان يقفان كلّ زوج على جانب منها- في غاية الوسامة ورأيت كذلك عن يمين الشمس شخصاً في ثياب الكهنة أولاني ظهره ووجهه وهو يقابل العذراء مريم والسيد المسيح. شاهدت كل هذا بدقة ووضوح وكحقيقة لاريب فيها. ولم أنفكّ طوال الوقت عن التسبيح والدعاء للّه بصوت جهير. بقيت هذه الرؤيا ماثلة أمامي حوالى ثُمن الساعة ثم تلاشت. وحُملت الى زنزانتي الحقيرة وبدأت فجأة أصرخ عالياً:

- بنعمة الله صرت مستحقاً لروية مجده في أمور لم يرها أحد من أهل هذه الدنيا الفانية على أغلب إحتمال. إذن فهذا دليل على الحرية والسعادة والحظوة عند الله. فبينما أنتم أيها الأنذال ستبقون أنذالاً على طول، تعساء يجلّلكم العار أمام الله. والآن إستمعوا لي. إني لعلى يقين بأنه في عيد جميع القديسين- وهو اليوم الذي ولدت فيه من العام (١٥٠٠) والموافق للأول من تشرين وفي الساعة الرابعة بعد حلول الليل- في هذا اليوم عينه الذي سيأتي. ستُرغمون على أن تخرجوني من هذه الزنزانة المظلمة ولن يسعكم أن تفعلوا خلاف هذا، لأني قد رأيت ذلك بعينيّ على عرش الله

نفسه. إن الكاهن الذي كان متوجهاً الى الله ومديراً ظهره لي هو بطرس الرسول وقد كان يسترحم لي وهو خجلٌ من الظلم الفادح الوحشي الذي يحيق بالمسيحيين في عقر داره. قولوا لأيٍّ من أمثالكم: ليس لأحدٍ القدرة على إلحاق الأذى بي بعد الآن. وقولوا لذلك السيد العظيم الذي يمسكني هنا، لو أنه يسمح لي إما بشيء من الشمع والكاغد أو بالوسائل التي تمكنني من التعبير عن مجد الله الذي شاهدته فسأجلو تماماً ما يبدو مشكوكاً فيه.

مع إن الأطباء فقدوا آخر أمل في حياة المحافظ، فقد ظل مسيطراً على قواه العقلية. ولم يعد يرى تلك الأخيلة الجنونية التي كانت تستولي على حواسه كلّ سنة. وكان ضميره يعذبه بإستمرار لإعتقاده الراسخ بأن ما عانيت وما أزال أعاني هو الظلم الفادح وأنبأ البابا بالأشياء العجيبة التي تراءت لي وتحدث بها. ولكن البابا الذي ما كان يومن بالله ولا بأي شيء آخر قال معقباً على هذا بأني لاشك مجنون وأوصاه بأن يحاول كلّ مافي وسعه ليحقق الشفاء لنفسه. وبعد هذا الجواب أرسل المحافظ رسالة تسرية وتهدئة لي. وبعث إليّ بأدوات للكتابة ومقدار من الشمع مع الأدوات للعمل. جاءني برسالته الرقيقة واحدٌ من أعوانه الذين يكنّون لي وداً. كان هذا الرجل يختلف تماماً عن عصبة الأنذال الذين تمنّوا موتي.

تسلمت الكاغد والشمع وشرعت في العمل. وكتبت أثناء ذلك هذه القصيدة مهداة الى المحافظ:

"سيدي! لو كان في وسعي أن أثبت لك رؤيتي النور السرمدي الذي
كشفه لي الله بذاته في هذه الدنيا الفانية.
فإنك ستولي كلماتي البليغة ماتستحق من إعتبار.
إن رؤياي لمجد الله التي شاهدتها؛ تلك العجائب لم
تنكشف لأنظار أي من البشر قبل أن تزول كلّ أحزان هذا العالم المظلم
عندئذ ستنفتح أبواب العدالة المقدسة وتسقط (فيوري)[٢٤٢] الرذيلة
من حالق وهي مكبّلة بالسلاسل صارخة مستعيذة بالسماء لخسارها الموجع.
لو كان لديّ ضياء فإن مواهبي الغنية ستتولى إثبات هذه الرؤيا
الإلهية. وعندئذ سيسقط عني عبء صليبي الثقيل!"

دفعت بالقصيدة الى الخادم الصديق الذي جاءني صباح اليوم التالي يحمل فطوري. فسلمها بدوره الى المحافظ في غفلة من أعين خصومي. كان يسرّ المحافظ ان يراني مطلق السراح لأنه تأكد بأن الظلم الشنيع الذي ألحقه بي هو السبب الرئيس في موته، فأخذ القصيدة وقرأها أكثر من مرّة ثم قال:

– ليس هذه بأقوال أو أفكار مجنون. بل أنها ثمرة عقل راجح وخلق قويم وأمر فوراً أحد أعوانه بأخذ القصيدة الى البابا وأن يسلمها إليه يداً بيد وأن يرجوه إطلاق سراحي. وفي أثناء ماكان سكرتيره يسعى الى البابا بالقصيدة، أرسل لي نوراً لليل وللنهار وزوّدني بكلّ مايلزم من وسائل الراحة. فبدأت حالتي الصحية تتحسن بعد أن تردت الى أسفل درك.

(٢٤٢) في الأساطير اليونانية (الفيوري Furi) هي واحدة من إلاهات الإنتقام.

وقرأ الپاپا القصيدة عدة مرات وبعث بجواب للمحافظ يؤكد له أنه سيفعل في القريب العاجل مايسرّه. ولولا إصرار (پيير لويجي) على إبقائي في السجن ضد رغبة الپاپا والده، لأطلق سراحي فعلاً.

كان الموت يدنو من المحافظ بخطىً حثيثة. وكنت في تلك الأثناء أرسم وأعمل تصاميم للرؤيا العجيبة. وفي صبيحة عيد جميع القديسين، أرسل المحافظ إبن أخيه (پيير اوگوليني) ليعرض عليّ بعض الأحجار الكريمة، فصرخت حالما شاهدت ذلك:

- هذا هو عربون تحريري.

وكان الفتى بليداً يغلب عليه بطء الفهم:

- لاتتقوّل عليّ بهذا أبداً يا بنڤنوتو.

فأجبته:

- خذ جواهرك وإنصرف. لقد كانت معاملتي هنا بدرجة من الفظاظة بحيث كان الضياء الوحيد الذي أستنير به هو مافي هذا الجحر المظلم الكئيب وهو لايصلح لتقدير قيمة الجواهر. وأمّا عن قضية تركي هذا السجن فلن ينقضي عليّ هذا اليوم إلا وقد جئت أنت بنفسك لإطلاق سراحي: هذا ما لابد منه ولن تستطيع أن تحول دونه.

تركني وأقفل باب سجني مرة أخرى. وبعد أكثر من ساعتين عاد دون أن يصحبه حرس مسلح، بل كان برفقته فتيان اثنان لمساعدتي على السير. ونُقلت الى الغرفة الكبيرة التي كنت أحتلها في السابق في العام ١٥٣٨[٢٤٣] وأُعيدت لي كل أسباب الراحة التي أردتها.

إشتدت وطأة الداء على المحافظ وبعد أيام فارق الحياة. توفي وهو يظنني مطلق السراح. وإستخلفَ أخوه (أنطونيو أوگوليني) وهو الذي قال له أني قد خرجت من السجن. وبالقدر المتيسر لي من المعلومات رجّحت بأن الپاپا هو الذي أمر (أنطونيو) بإبقائي سجيناً في هذا الجناح الرحب حتى يخطره بقراره في أمري. في تلك الأثناء قام (دورانتي السيجي) الذي ذكرته سابقاً. بتدبير مؤامرة لقتلي بدسّ مادة لها أثر سمّي في الطعام الذي أتناوله بمعاونة ذلك الجندي الذي كان عقاقيريّاً في (پراتو) على أن لايقضي به على حياتي حالاً بل بصورة تدريجية فلا يظهر مفعوله إلاّ بعد أربعة أو خمسة أشهر. كانا قد إتفقا معاً على وضع مقدار من مسحوق الألماس في طعامي وهو ليس من قبيل السموم بحد ذاته إلاّ أنه في منتهى الصلابة ومهما سُحق فإنه يحتفظ برؤوسه الحادة. إن الألماس لايشبه المعادن والأحجار الأخرى التي تفقد أطرافها الحادة عند سحقها فتصبح ملساء كروية وبنتيجة هذا فإنها عند دخولها المعدة مع الطعام تلتصق دقائقها بجدار المعدة والأمعاء أثناء عملية الهضم. ثم تندفع شيئاً فشيئاً بما يدخل من الطعام الى داخل الأنسجة الهضمية فتمزقها شرّ ممزق وتحدث الوفاة. في حين لو مُزج أي مسحوق آخر من الحجر أو الزجاج بالطعام فإنه سيخرج مع الفضلات، إذ ليس لديه خاصية الإلتصاق.

(٢٤٣) كان ذلك في العام ١٥٣٩.

أعطى (دورانتي) هذا الحارس ألماسةً زهيدة الثمن وقيل إن صائغاً يدعى (ليوني الأريزي) وهو من ألدّ أعدائي كُلِّفَ بسحقها. وكان هذا الصائغ معدماً والألماسة قد تساوي بضع عشرات من الكراونات، فدفع للحارس بمسحوق مدعياً أنه مسحوق الألماسة ليوضع في طعامي. وفي صباح ذلك اليوم وكان يوم جمعة تناولت المسحوق مع طعامي. تناولته مخلوطاً بالصلصة وبالشوربا ء وباللحم المطبوخ مع الخضار. وكانت شهيتي منفتحة لأني صمت ليلة العيد والجمعة وهو يوم العيد وقد شعرت فعلاً بأسناني تطحن شيئاً صلباً إلا أني لم أشكّ بشيء يرقى الى هذه المكيدة الشيطانية. وبقي قليل من الصلصة بعد فراغي، فلفت نظري ذرات دقيقة تخلفت معها. فأخذتها للنافذة حيث الضيا ء قوي جداً متذكراً وأنا أفحصها بأن الطعام كان يضرّس أسناني صباح هذا اليوم على غير المعتاد. وبعد فحص دقيق بقدر ماتوصل إليه إستنتاجي أيقنت بأنه مسحوق الألماس، فإعتبرت نفسي في عداد الموتى، ولجأت بقلب مثقل بالهمّ الى الصلاة، وقد إستقرّ فكري بأن القضا ء قد حمّ ولات حين مناص. رحت ساعة كاملة أبتهل الى الله وأشكره للميتة الهنيئة التي خصّني بها؛ مادامت طوالعي قد حكمت عليّ بهذا المصير فقد رأيتُني سعيداً لأني سأغادر هذه الدنيا بهذه الطريقة السهلة ولم يسعني إلاّ أن أبارك للدنيا وللسنوات التي عشتها فيها وأنا الآن مزمع العودة الى مملكة أخرى صرت مستحقاً لها بنعمة الله.

كانت هذه الأفكار تجول في رأسي والمسحوق البالغ الدقة في راحة يدي، ذلك المسحوق الذي كنت متأكداً بأنه ألماس. ولكن بما أن الأمل لايموت قط، فقد أغراني بارق منه بمحاولة صغيرة. فأمسكت بسكين صغيرة ووضعت بعض المسحوق بينها وبين أحد قضبان السجن الحديدية وضغطت برأس السكين عليها بقوة فإذا بها تتفتتّ. وأنعمت النظر فوجدت أنها إنسحقت فعلاً وأصبحت كالطحين. فعاد الأمل يشيع في كياني وقلت لنفسي:

- إنها ليست بحجر دورانتي الصلب، وإنما هي حجر هش رخيص لايلحق بي ضرراً.

ومع إني قد روّضت نفسي على الهدوء والموت بسلام فقد بدأت أرسم خططاً جديدة، إلا أني شكرت الباريء ودعوته بالبركة لحالة الفقر التي كان لها الفضل في نجاتي من الموت و هي في كثير من الأوقات مسببة للموت. فالسيد دورانتي[٢٤٤] أو كائناً من كان- أعطى (ليوني) ألماسة تزيد قيمتها عن مائة كراون وأمره بأن يطحنها لي، لكن فقره أقنعه بالإحتفاظ بها وطحن بدلها حجراً من البريل الأخضر لاتسوى أكثر من كارلينين. ولعله ظنّ أن مفعولها لايختلف عن مفعول مسحوق الألماس مادامت هي الأخرى من الأحجار الكريمة.

(٢٤٤) أمين سرّ البلاط الپاپوي ثم أسقف برنچيا ثم كردينال. له أبحاث في العلوم والقانون. إن بنڤنوتو يكيل التهم جزافا لأناس مثل دورانتي عرفوا بحسن السمعة. أما ليوني الذي ذكره فهو نحّات وصائغ مشهور. عرف بتهور وطبع حادٍ. حُكم عليه في ١٥٤٠ بالأشغال الشاقة في السفن لجريمة عنف إقترفها. تجد سيرته في (ڤاساري، ج٨).

في تلك الفترة من الزمن سُجن في القلعة أسقف پاڤيا[٢٤٥]، المُنسنيور دي روسّي d'Rossi اليارمي، شقيق الكونت (سان سكوندو Count San Secondo). بسبب القلاقل التي وقعت في (پاڤيا)، ولما كان صديقاً حميماً لي فقد حشرت رأسي من خلال كوّة زنزانتي وناديته بأعلى صوتي قائلاً إن هؤلاء المجرمين قد دسّوا لي مسحوق الألماس بغية القضاء على حياتي. كما إني أرسلت إليه صحبة أحد خدمه شيئاً من هذا المسحوق، دون أن أطلعه على أني تبينت حقيقة أمره. بل قلت أنهم قد سمّموني بعد وفاة ذلك المحافظ الكريم. وبما أنه لم يبق لي إلا القليل من الزمن في هذه الدنيا فقد رجوته أن يزودني برغيف واحد من أرغفة خبزه يومياً لأني ماعدت أقرب أي طعام يردني منهم. فوعدني بإرسال شيء من طعامه. وأحدث (السيد أنطونيو) ضجة كبيرة حول الموضوع لأنه لم يكن طرفاً في المكيدة وطلب شيئاً من المسحوق. ومع إنه توهم أيضاً بأنه مسحوق الألماس فقد أعاد التفكير في القضية وأهمل تعقيبها ظاناً بأن الپاپا وراءها. ومنذ ذلك الحين قصرت غذائي على مايردني من مائدة الأسقف وواصلت نظم ملحمتي الشعرية عن السجن. ذاكراً فيها الأمور التي تحصل لي كافةً يوماً بيوم بالتفصيل والدقة. وأخذ السيد أنطونيو يبعث اليّ بطعام من مائدته أيضاً. وكان يأتيني به (جيوڤاني) العقاقيريّ من پراتو، الذي أتيت الى ذكره وكنت أعرف مقدار كرهه لي، فهو الذي دسّ لي مسحوق الألماس ولذلك قلت له إني لن أقرب أي طعام يأتيني به قبل أن يسبقني الى تناول شيء منه. فأجاب هذا إمتياز ينفرد به الپاپوات . فأجبته لما كان من واجب النبلاء تذوق طعام الپاپا، فإن واجبه بوصفه حارساً وعقاقيرياً ومن سكنة (پراتو) أن لايرفض القيام بهذه الخدمة لمواطن فلورنسي في مقامي. فراح يكيل لي السباب والشتائم فكلت له الصاع صاعين.

إن السيد أنطونيو الذي صار يخجل بعض الشيء من نفسه ولاسيما إعتزامه تحميلي نفقات بقائي في السجن وهي التي أبرأ ذمتي منها المحافظ المتوفى، عمد الى إستبدال هذا الحارس بآخر صديق وعهد إليه بإحضار طعامي. وبلغ من شهامته انه كان يتذوق طعامي من دون طلب أو تردد. وأخبرني كيف ان (مسيو مونتلوك) كان يلاحق الپاپا لطلب إطلاق سراحي نيابةً عن الملك الفرنسي وإن الپاپا يكنّ كثير ميل الى تحقيق مطلبه، وإن الكردينال فارنيزي[٢٤٦] الذي كان صديقاً سابقاً وراعياً لي، ذكر أيضاً بألاّ أمل لي في الخروج من السجن إلا بعد فترة. فعقّبت على هذا بقولي بأني سأجد وسيلة لمغادرته رغم أنفهم كافةً.

فرجاني هذا الشاب العالي الخلق بالسكوت ولاأدع أحداً يسمع بمثل هذه الأقوال التي قد يصيبني منها أذى. وأضاف يقول:"مادمت قد وضعت ثقتك بالله فعليك بإنتظار مراحمه والصبر". فأجبته ان القدرة الإلهية لاتخشى من عمل الظلم الخبيث.

بعد مرور بضعة أيام على هذا قدم كردينال (فِرارا) الى روما للسلام على الپاپا فإستبقاه هذا لمدة

(٢٤٥) نسبة الى بليدة تقع جنوب ميلان تبعد عنها مسافة (٣٠) كيلومتراً تقريباً.

(٢٤٦) هو إبن (پيير لويجي) أي حفيد الپاپا پولص. رئيس أساقفة پارما. كان يطمح الى العرش الپابوي إلاّ أن حزب آل مديتشي وقف حائلاً دون ذلك فلم ينجح. كان ذلك بعد وفاة الپاپا پولص الثالث فارنيزي.

من الزمن الي أن حان وقت العشاء ذلك لأنه كان واسع الإطلاع معقّباً للمعارف وقد أراد أن ينفرد مع الكردينال بحديث مبسّط حول الشؤون الفرنسية السيئة. والمعروف أنه عندما يأكل الناس في جمعية فكثيراً مايقولون أشياء ما كانوا ليتفوهوا بها في مناسبات أخرى. ولما كان الملك الفرنسي العظيم سمحاً وكريماً للغاية في معاملاته ولما كان الكردينال يدرك هذه الخصلة في الملك إدراكاً تاماً فقد خرج عن كلّ حدٍّ في التعهد للپاپا بما لم يتوقعه هذا. فطابت نفسه وبدا في أحسن حال من الإنشراح مما زاده في هذا أنه إعتاد أن يأكل بنهم شديد وشراهة عنيفة ثم يتقيأ بعدها. فلما وجد الكردينال قداسته بهذه الحالة من الإنشراح، وكم طابت نفسه وتهيأت لمنح الإنعامات، أخذ يطلبني ملحّاً بإسم الملك موكداً وموضحاً كم إن جلالته يرغب في تحقيق هذا الرجاء. وضحك الپاپا ضحكةً مجلجلة وقد شعر بأن وقت قيئه دنا كما ان تأثير الخمرة الكثيرة التي عبّها بدء يظهر فيه. فقال:[٢٤٧]

– في هذه اللحظة بالذات أريدك أن تأخذه معك الى البيت.

ثم أصدر الأوامر العاجلة بإخلاء سبيلي وترك المائدة. فأرسل الكردينال بطلبي فوراً قبل أن يبلغ الخبر (پيير لويجي) الذي لم يكن يريد خروجي من السجن بأي حال من الأحوال. ووصل رسول الپاپا الى القلعة يصحبه نبيلان من خاصة الكردينال. وفي حوالي الساعة الرابعة ليلاً أخرجوني من زنزانتي وجاؤا بي الى منزل الكردينال الذي حيّاني بحرارة. وإستضافني في بيته وبقيت مرتاحاً منعماً.

أرغمني السيد أنطونيو شقيق المحافظ المتوفى وخلفه على تسديد نفقات السجن ومايلحق بها من أجور الحرس والشرطة وأمثالهم. متجاهلاً وصية أخيه الميت بحقيّ. وقد كلّفني هذا عدة عشرات من الكراونات. ثم أن الكردينال أوصاني بإلتزام الحذر التام لوكنت أقيم لحياتي وزناً، فلو لم يضمن إطلاق سراحي في تلك الليلة لما خرجت منه قط. وقد سمع مؤخراً ما أُشيع بأن الپاپا أسف كثيراً على منحي حريتي[٢٤٨].

عليّ أن أعود الى الوراء قليلاً مادام كلّ هذه الأحداث قد ذكرتها في ملحمتي الشعرية. من بين من زارني أثناء وجودي القصير في قصر الكردينال (كورنارو) وفي حدائق الپاپا الخاصة صديق عزيز هو السيد (برناردو گاللوّزي B. Galluzzi) أحد صرّافي السيد (بيندو آلتوڤيتي Bendo Altoviti) وكنت قد أودعت لديه بضع مئات من الكراونات. عادني أثناء وجودي في حدائق الپاپا وأراد إعادة المبلغ المؤمّن عنده. فإحتججت بقولي لامحل لها آخر لا عند صديق أعزّ منه ولا في مكان أفضل مما هي فيه. فتردد وتمنّع وأبدى عزوفاً حتى أقنعته بما يشبه الإرغام على إبقائها لديه. وبعد أن أُطلق سراحي علمت أن هذا الفتى المسكين برناردو گاللوزي قد أفلس وهكذا فقدت مالي.

كذلك أذكر أني حلمت في السجن حلماً مرعباً. فقد خيّل إليّ أن كلمات في غاية الخطورة قد كُتبت

(٢٤٧) هذه أيضاً من الشائعات والمبالغات التي خصّ بها چلليني أولئك الذين كان يعدّهم من أعدائه. إذ لم يُؤثر عن الپاپا پولص هذه الطبيعة.

(٢٤٨) تاريخ إطلاق سراحه كما أورده باكي هو في ٢٤ كانون الأول ١٥٣٩ أو هو على الأقل التاريخ الذي يحدده له الأمر الرسمي بإطلاق سراحه. إلاّ أن (كارو) و(الأماين) يذكران مايدلّ على أنه حُرّر في الأيام الأولى من هذا الشهر.

على جبيني كأنما خُطّت بقلم: وقد قال لي كاتبها ثلاث مرات "أسكت. ولا تخبر أحداً بها". وعندما إستيقظت وجدت جبيني مُعْلَماً. وقد ذكرت في ملحمتي الشعرية عدداً من أمثال هذه الأمور. كذلك تنبأت من دون أن أدرك المغزى والأهمية - بكلّ ماوقع لد(سنيور پير لويجي) بوضوح ودقة جعلتاني موقناً بأن ملاكاً من السماء كشفها لي.[٢٤٩]

هناك أمر يجب أن لا أغفله- ولعله أعظم حدث وقع لأيٍ من البشر- وإني لأكتب هذا إثباتاً للعناية الإلهية ولحقيقة الأسرار الربانية التي حباني الله بها. فمنذ أن حلمت بتلك الرؤيا العجيبة حتى الآن، وشعاع من النور مستقرّ فوق رأسي كان من السطوع بحيث لاتخطئه قط عيون أولئك القلائل الذين رغبت في أن يروه. وكان يمكن رؤيته صباحاً فوق خيالي لمدة ساعتين بعد طلوع الشمس. وكان أوضح للعين عندما يسقط ندى خفيف على العشب. كما يرى أيضاً في السماء عند غروب الشمس. وقد إنتبهت الى وجوده أثناء إقامتي في فرنسا وفي پاريس ويعزى سبب وضوحه الى أن هواء تلك البلاد أكثر صفاءً ونقاوة من جوّ أيطاليا حيث الضباب القاتم الكثيف يغطي سمادها غالباً. وكنت أنبه الاخرين الى هذا النور كلما شعرت بوجوده في أيطاليا وإن كان أقل وضوحاً منه في ذلك الجزء من تلك البلاد.

سأثبت الآن الملحمة الشعرية التي نظمتها في السجن وفي مدحه وبعدها سأواصل تدوين قصة حياتي بكلّ تقلباتها والصروف التي مررت بها. وكذلك قصة ما سيأتي بعدها من أحداث.

أقدّم هذه القصيدة الى لوكّامارتيني[٢٥٠] وقد خاطبته فيها كما سيتبين منها:

من يريد معرفة قوة الله وقدرته. وكم يستطيع البشر الإستمداد منهما.
فليقض وقتاً في السجن بعيداً عن أهله، كئيباً سقيماً معذّب الفكر.
بعيداً الاف الأميال عن وطنه ومسقط رأسه.
إن شئت أن تقيم الدليل على صمودك فأدخل السجن وأنت بريء
ليمرّ بك الشهر إثر الشهر وأنت منسي لا تأمل عوناً من أحدٍ.
وتجرّد من القليل الذي تملك وتقف مواجهاً الإهانات والموت كلّ يوم،
يائساً من تبدّل حالك. إن اليأس سيدفعك الى عمل جنوني
الى كسر أبواب السجن والقفز من أسوار الحصن العالية.
ثم لتعود اليه ثانيةً وتوضع في زنزانة أضيق وأفظع من الأولى.
أي عزيزي (لوكا) اعرني سمعك فلديّ من الأنباء ماهو أدهى:

(٢٤٩) ينوه هنا بإغتياله الذي وقع بعد هذا التاريخ بثماني سنوات.

(٢٥٠) هذه القصيدة هي كما سيلاحظ من قبيل الوعظ المملّ، لم يحفل أحد مترجمي المذكرات بترجمتها ترجمة دقيقة. وهي من البحر المسمى ترزاريما Truzarima الذي يستخدم لنظم قصائد الهجاء والسخر غير المبتذل او الفاحش في كثير من الأحيان. واصل هذا البحر فلورنسي (انظر سايموندز: الرنيسانس في أيطاليا- الأدب الأيطالي: القسم الثاني).

الساق مكسورة، والأمل خائب، وأنت ترتجف برداً بلا رداء
أو غطاء وبدلاً من كلمة عطف لاتجد من الأنباء إلاّ أسوأها
يحملها إليك الحارس مع طعامك. ذلك البهيمة الذي لم يمرّ عليه
طويل زمن مذ كان يمزج العقاقير في (پراتو).
إن المرء لايشتهر إلاّ بتراكم المحن والأرزاء عليه.
المصطبة الخشبية مقعدك الوحيد. تجلس عليه وأنت ساهم
تبدد وقتك العبقري الخلاّق في فراغ تامٍ.
وللحارس قوانينه. إنه لايسمح لك بكلمةٍ ويمنع عنك ماتطلب
وقلما يفتح الباب فتحةً تكفي لحشر نفسه فيه.
وعبثاً تسأله أن يمنّ عليك بما تشغل به وقتك ويطرد عنك السأم
من كاغد وحبر وقلم، وأدوات العمل، ونار تتدفأ بها.
بينما تدور أفكارك كلها في دائرة أملٍ وهو الخروج من السجن.
يؤسفني أن تكون كلماتي قاصرة عن التعبير عما أرومه إلا القليل.
إن المظالم التي إنصبّت عليها تعدُّ بالمئات. وفي وسعي أن
أبسطها بتفصيل واحدة واحدة. إلا أني أعود الى غرضي
الأوّلي لأنشد مايجب إنشاده في مدح السجن.
لست أظن أن ألسنة الملائكة قادرة على أيفائه حقه من المديح.
في السجن لاتجد من الأماجد والأكارم إلا المعتقلين. أولئك
الذين حبسهم الحكام الطغاة، أو أعوانهم الأشرار بدافع الحقد
والحسد والبغضاء عليهما لعنة الله.
ولكن هذه هي الحقيقة التي سأكشفها الآن. إن السجين رغم آلامه
وعذابه الجهنميّ، يتوجه الى الله بالصلاة ربما بطلب المغفرة
من حياة أثيمة حفلت بالشرور. ألا أبقه سنتين في الأسر
القاسي فسيتطهّر ويصبح في عداد القديسين، وأخاً لكلّ
البشر. سيجد نفسه طاهراً روحاً وجسماً. وبذلك
يقترب من الذات الإلهية.
والآن أصغ الى هذه المعجزة: ذات مرة حين حفزتني
الرغبة في الكتابة. إندفعت الى تحقيق هذه الحاجة بكلّ قواي.
أخذت أقطع الغرفة ذهاباً وأياباً وأنا غارق في التفكير.
فوقع نظري على صدعٍ في الباب فأمنت لنفسي شظية من
خشبةٍ إنتزعتها بأسناني. ووجدت قطعة آجرّ ملقاة فطحنتها